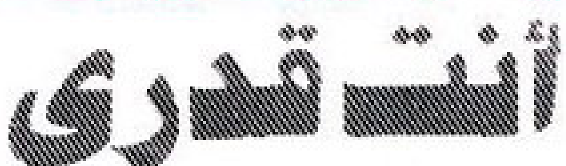








د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

أنت قدرى ..

« عندما يلوح لنا أننا ندير حياتنا بعقولنا وحدها ..

عندما نتصوّر أننا نملك الزمام تمامًا ..

عندها يحلو للقدر أن يتدخّل ..

وعندما يفعل ، لا نجد أمامنا سوى وسيلة واحدة للنجاة .. الاستسلام التام » ..

د. نبيل فاروق

١ ـ القدر ..

ارتجفت ..

ارتعدت أطرافها ..

ترقرقت الدموع في عينيها ..

خفَق قلبها فى قوة وعنف ، وهى تتطلع إلى ذلك الطبيب الوقُور الأشيب ، الذى حملت عيناه حنان الدنيا كلها وشفقتها ، واختنقت الكلمات فى ثنايا حلقها ، وجاهدت ليلفظها لسانها المتحجّر الجاف ، وصوت الطبيب يتسلّل إلى أذنيها عطوفًا ، آسفًا ، وهو يغمغم :

ـ معذرة يا بنيّتى .. أعلم أن الحقيقة مؤلمة ، ولكننى لا أستطيع إخفاءها عنك ، فلقد صار أمر قلبك حساسًا يُنبئ بالخطر ، ورسم القلب الأخير ، الذى بين يدىّ الآن يؤكّد ذلك .

خرجت الكلمات من بين شفتيها الجميلتين مرتعدة شاحبة :

ـ هل .. هل يَعْنى ذلك أننى .. أننى سأموت ؟

خفض عينيه فى أسًى ، وكأنما يخشى أن يواجهها بالجواب ، وتمتم :

ـ الأعمار بيد الله يابنيَّتى ، ولكن .....

صمت لحظة ، وازدرد لُعابه بصوت مسموع ، وبحركة واضحة فى منتصف عنقه ، قبل أن يتابع :

ـ ولكن الحالة بالغة الخطورة بالفعل .

امْتُقِعَ وجهها ، وغابت منه الدماء ، وانكمشت فى مقعدها ، وكأنما تتشبَّث به مع ما تبقَّى لها من أيام ، فى هذه الدنيا ، وبكى قلبها قبل أن تنحدر الدموع من عينيها ..

ستموت ..

ستنتهى حياتها القصيرة ..

لن تبلغ الشيخوخة أبدًا ..

يا للقدر !..

كان يحلو لها فى حداثتها أن تتمنَّى ذلك ..

أن تأمل الموت فى شرخ الشباب ..

كانت تخشى أن يبلغ بها العمر مبلغ جدَّتها العجوز ، التى كانت تحيا معها قُبَيْل وفاتها ..

كانت تخشى أن يذهب جمالها ويذوى ..

أن تضيع حيويتها ..

وكانت تتطلَّع إلى وجه جدتها المتغضِّن ، الذى امتلأ بالتجاعيد ، وإلى نُحول جسدها ، وأنفاسها التى تتلاحق مع أقل مجهود ، وآلام شيخوختها ، وتهتف بكل ما يملأ جسدها الصَّبىّ من حيوية :

ـ أرجوك يا إلٰهى .. أمِتْنى شابة .. لا تجعلنى أبلغ هذا العمر ..

وها هو ذا خالق الكون (سبحانه وتعالى) يستجيب لدعواتها ..

فلماذا ترتجف هلعًا هكذا ؟ ..

وما الذى تخشى أن تفقده فى هذه الدنيا ؟..

إنها لا تملك شيئًا ..

ولا أحدًا ..

لقد كان القدر قاسيًا عليها ، فسلبها والدها ، وهى بعد فى رحم أمها ، وترك لها هذه الأم عامًا واحدًا ، لترضعها لبنها وحنانها ، ثم سلبها منها بدوره ..

وأصبحت هى يتيمة ، وهى لم تتجاوز عامها الأوَّل بعد ..

ولم يبقَ لها سوى جدَّتها ..
وسوى ذلك المعاش الضئيل .. الذى تركه جدّها ..
ولم يترك لها والدها شيئًا ..
كان (رحمه الله) عاملًا فقيرًا ، مات شابًا ، قبل أن يدّخر قرشًا ..
وفى كَنَفِ جَدَّتها عاشت ..
ومنحتها جدَّتها رعايتها وحبها ..
منحتها أقصى ما يمكن لأعوامها السبعين منحه ..
وألحقتها بالمدرسة الابتدائية ..
ثم الإعدادية ..
ثم الثانوية ..
وعندما حصلت على مجموع جيِّد ، أصرَّت جدتها على أن تستكمل تعليمها الجامعى ، على الرغم من قلَّة الدخل ، وكثرة المصروفات ..
ونظرًا لموهبتها فى فن الرسم ، التحقت بكلية الفنون الجميلة ..
وبعد عام واحد من التحاقها بها ، عادت روح جدَّتها إلى بارئها ..

وغادرت الجدَّة هذا العالم فى هدوء ..
وتركتها ..
تركتها وحيدة بائسة ..
بلا عائل ..
بلا معين ..
ومنذ ذلك الحين ، برز مرضها إلى الوجود ..
إنه لم ينشأ فجأة ، فقد كان دومًا هناك ..
إنها تذكر ذلك اليوم ، عندما ذهبت بها جدَّتها إلى ذلك المستوصف الخيرى ، المجاور لمنزلها ، عندما كانت هى فى السادسة من عمرها ..
لقد بكت — يومئذ — كثيرًا ، وهى ترقد فوق منضدة الفحص ، وذلك الطبيب الشاب يلصق بُوق سمَّاعته الطبيَّة البارد بصدرها ، وظهرها ، ويدقُّ سبَّابته اليسرى بوسطى يُمناه ، فوق ضلوعها البارزة ، ثم يتبادل حديثًا مقتضبًا مع جدَّتها ، ويخط بضع كلمات فوق تذكرة طبيَّة تحمل اسم المستوصف ، ويناولها للجدَّة فى ضجر ، ثم ينهض لتوقيع الكشف على المريض التالى ..
يومها عادت بها جدَّتها إلى المنزل ، وهى تبكى ..

ويومها انغرست فى جسدها الصغير أوَّل إبرة طبيَّة ..

وبعدها اعتادت ذلك ..

كان عليها أن تحتمل الحقن بالبنسلين الطويل المفعول مرَّة واحدة كل شهر ..

وطيلة عمرها ..

وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، عرفت حقيقة مرضها ..

كانت مصابة بحمَّى روماتيزمية فى القلب ، عزَاها الأطباء إلى سوء مناخ تلك الشقة الصغيرة ، التى تقطنها مع جدَّتها ..

وتجاهلت هى ذلك ..

وقرَّرت أن تمضى فى حياتها ..

وبعد وفاة جدَّتها ، بدأ المرض يتخذ مسارًا مختلفًا ..

أصبحت تصاب بضيق فى أنفاسها ، وبازرقاقٍ فى أصابعها .

وعلمت من الأطباء أن بعض صمامات قلبها قد أصيبت بالتلف ..

وأن قلبها يمرُّ بمرحلة بالغة الخطورة ..

وحاولت أن تعالج ذلك ..

أنفقت آخر قرش حصلت عليه ، من بيع أثاث منزل جدَّتها ..

ولكن قلبها كان أضعف من أن يحتمل ..

وها هى ذى تجلس أخيرًا أمام طبيب كبير ، تجاوزت قيمة ما حصل عليه مقابل الكشف عليها ، ثمن بيع طاقم (الصالون) كله ..

وانحدرت دموعها الساخنة من عينيها ..

ومزَّق حزنها اليائس نياط قلب الطبيب ، فتمتم :

ــ هناك وسيلة بالطبع .

رفعت عينيها الدامعتين إليه ، وسألته فى لهفة :

ــ حقًّا ؟!

ازْدَرَد لُعابه مرَّة أخرى ، وأشاح بوجهه ، مغمغمًا :

ــ بالطبع .. الطب يحمل الأمل دوْمًا .

ثم خفض وجهه ، مغمغمًا :

ــ والجراحة تحمل أكثر .

سألته فى قلق :

ــ الجراحة ؟!.. أتعنى أن الجراحة يمكنها أن تنقذنى ؟

صمت لحظة أخرى ، ثم أجاب فى خُفوت :

ــ إلى حدٍّ ما .

وتنهَّد فى أسف ، وغمغم :

ــ الحالة متطوِّرة جدًا فى الواقع ، فأنت مصابة بضيق وارتجاع فى الصمامين (الميترالى والأورطى) ، ويمكن أن يستبدَل بالصمامين صمامين آخرين ، من النوع الصناعى ، ولكن حالة القلب سيئة ، وستحتاج عملية استبدال بالصمامين التالفين إلى جرَّاح بارع ، وإلى علاج طبِّى مكثَّف ، سابق للجراحة ، وإلى .....

قاطعته :

ــ وكم سيتكلَّف هذا ؟

تطلَّع إليها مشفقًا ، وصمت طويلًا ، وكأنما هذه هى النقطة التى حاول الفرار منها طِيلَة الوقت ، ثم عاد يُشيح بوجهه ، مجيبًا :

ــ لو وافق الطبيب الجرَّاح على تخفيض أجره ، وأمكننى إقناع المستشفى بـ .....

قاطعته مرَّة أخرى :

ــ كم يا سيِّدى ؟

زفر فى قوة ، وقال :

ــ ما يقرب من عشرة آلاف جنيه .

شَحُب وجهها ، وهى تقول :

ــ عشرة آلاف ؟!

نعم :

ــ يمكننى أن أعاونك ، و .....

نهضت قائلة فى حزم :

ــ لا .. لم يصل الأمر إلى هذا الحدّ .

نهض بدوره ، قائلًا :

ــ اسمعى يا بنيَّتى .. الطب ليس مهنة تجارية .. سأعيد إليك قيمة الكشف ، و .....

اندفعت خارج الحجرة ، وهى تهتف :

ــ لا .. لم أصل إلى مرحلة التسوُّل بعد .

حاول أن يمنعها ، هاتفًا :

ــ انتظرى يا بنيَّتى .. لا تبذلى هذا الجهد .. قلبك لن يحتمل .. لن .....

لم تسمعه ..

كانت تعدُو مبتعدة ، والدموع تسيل من عينيها أنهارًا ..

عشرة آلاف جنيه ؟!..

يا لها من ثروة !!..

إنها لم تحلُم يومًا بامتلاك مثلها ..

حتى لو قبلت عرض صاحب المنزل ، وتركت له منزل جدتها القديم المتهالك ..

لقد عرض عليها أربعة آلاف جنيه فحسب ، مؤكدًا أن المنزل آيل للسقوط ، وأنه لن يساوى ما يزيد على ذلك ، بأى حال من الأحوال ..

ولكن إلى أين تذهب ، لوتركت له منزلها ؟..

إنه المأوى الوحيد الذى تبقَّى لها ..

وفجأة ، اختنقت الأنفاس فى حلقها ..

وخفَق قلبها فى قوة وعنف ..

وهوَت ..

هوَت وهى تختنق ..

إنها النهاية ..

نهايتها ..

* * *



٢ ــ الضَّـياع ..

حياة أم موت ؟!..

ما الذى اختاره لها القدر ؟..

إنها تسبح فى ظلام دامس ، منذ هوَت فى منتصف الطريق ..

ولكن أنفاسها لم تعُد تتلاحق ، كما حدث لحظتها ..

صحيح أن قلبها ما زال يخفُق ..

ولكن أنفاسها تتردَّد فى صدرها هادئة ..

وهناك شىء ما فوق وجهها ..

أهو الموت ؟..

بذلت جهدًا لتفتح جفنَيْها ..

وغمر عينيها ضوء أبيض ..

وبعد لحظات ، اعتادت عيناها الضوء ، ورأت أجسادًا بيضاء تحيط بها ..

نعم .. إنه الموت ..

لقد ماتت ، وانتقلت روحها إلى الجنة ..

وهذه الأجساد البيضاء هى الملائكة ..
هاهو ذا أحدها ينفصل عن الآخرين ، ويقترب منها ..
« هل أنت بخير ؟ » ..
تسلَّل صوته الهادئ إلى أذنيها ، فغمغمت فى دهشة :
ــ هل .. هل أنت بشرى ؟
بدأت ملامحه تتضح ، وهو يبتسم ..
إنه شاب وسيم ، يرتدى معطف الأطباء ..
« اطمئنى .. إنك على قيد الحياة » ..
جاءها صوته الهادئ هذه المرَّة ، ليعيدها إلى عالم الواقع ، فغمغمت :
ــ من أنت ؟.. وأين أنا ؟
ابتسم مجيبًا :
ــ أنا الدكتور (هشام) ، وأنت فى مستشفى (قصر العينى) ، فلقد أصابتك نوبة قلبية ، وسقطت فى منتصف الطريق ، ولكن أحد المارة أسرع يحملك إلى سيارته ، وانطلق بك إلى هنا ، ولقد تم إسعافك بمعجزة .
حدَّقت فى وجهه بدهشة ..
إذن فهى لم تمُت ..

إنها على قيد الحياة ..
ما زالت كذلك ..
لم تمُت هذه المرَّة ..
لم تلقَ حتْفها ..
شاء القدر أن يمنحها مزيدًا من العمر ..
ومن العذاب ..
وشعرت بذلك الشىء يجثم على وجهها ، فرفعت يدها إلى أنفها ، ولكن يدها ارتطمت بجسم من البلاستيك ، وسمعت الطبيب يقول :
ــ إنه قناع الأكسوجين .. اتركيه فوق وجهك ، فأنت تدِينين له بحياتك .
ثم ابتسم مرَّة أخرى ، مستطردًا :
ــ أتعلمين كيف كان لون بشرتك ، عندما أتوا بك إلى هنا ؟.. كان يحمل زُرقة مخيفة ، حتى أن الجميع قد تصوَّروا أنك قد لقيت حتفك بالفعل .
تمتمت فى خُفوت :
ــ ليت هذا حدث .
عجز صوتها الواهن عن اختراق قناع الأكسوجين

الشفَّاف ، فمال الدكتور (هشام) نحوها ، وكأنما يسعى لسماع عبارتها ، فقالت وهى ترفع من صـــوتها بعض الشىء :

ــ متى يمكننى أن أرحل ؟

اعتدل ، وهو يهزُّ رأسه ، قائلًا :

ــ ليس الآن بالطبع .. فأنت تحتاجين إلى رعاية ومتابعة ، و .....

صمت لحظة ، ثم أضاف فى حسْم :

فحالة قلبك سيئة للغاية .

غمغمت فى مرارة :

ــ أعلم ذلك .

ثم أضافت فى عنادٍ :

ــ أريد أن أرحل .

تطلَّع إليها لحظات ، وبدا له وجهها شاحبًا نحيلًا ، تحتل عيناها الواسعتان نصفه ، برموشها السَّوداء الطويلة ، ويسبح نهر شعرها الفاحم الناعم حوله فى رفق ، ويبرز منه أنفها الرقيق على استحياء ، وتنفرج فيه شفتان مليئتان صغيرتان ، عن أسنان ناصعة البياض ..

وبدت له جميلة رقيقة ..

وفى صوت خافت ، غمغم وهو يلقى نظرة على ساعة يده :

ــ لن يمكنك الرحيل الآن على أيَّة حال ، فهى الثالثة صباحًا .

هتفت فى دهشة :

ــ يا إلٰهى !!.. هل فقدت وعيي طِيلَة سبع ساعات ؟

تمتم :

ــ أظن ذلك .

ثم أضاف :

ــ ولكن يمكنك الرحيل فى الثامنة صباحًا .

صمت لحظة ، ثم استدرك :

ــ هذا لو سمح طبيبك الخاص بهذا .

سألته فى دهشة :

ــ طبيبى الخاص ؟!.. أى طبيب تقصد ؟

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ــ هناك طبيب يعالج قلبك حتمًا .. أليس كذلك ؟

تمتمت فى ضيق :

ــ نعم .. أظن ذلك .

هتف فى دهشة :

ـ تظنّين ؟

ومال نحوها ، مستطردًا فى حزم :

ـ اسمعى ياسيِّدتى .. إن قلبك يُعانى تلفًا بصماميه الرئيسيين ، وهذا يَعْنى أن جسدك سيفتقر إلى الدماء الكافية لنشاطك الطبيعى ، مالم يتم استبدال هذين الصمامين .

بدت لها كلماته مؤلمة ، فأشاحت بوجهها ، قائلة فى حَنَق :

ـ اعْفِنِى من هذه المحاضرة ، فلقد سمعتها منذ ساعات .

اعتدل ، وتطلَّع إليها لحظة ، ثم قال :

ـ أهذا ما سبَّب لك فقدان الوعى ؟

تمتمت :

ـ إلى حدٍّ ما .

بَقِىَ صامتًا لحظات أخرى ، ثم زفر فى قوة ، وقال :

ـ اسمعى ياسيِّدتى ..

قاطعته فى خُفُوت :

ـ اسمى (وفاء) .. (وفاء طلعت) .

زفر مرَّة أخرى ، وقال :

ـ حسنًا .. اسمعى يا (وفاء) .. لايوجد مخلوق واحد ،

يمكنه أن يمنعك من مغادرة المستشفى وقتما تشائين ، فعلاقتك بالمستشفى لا تتجاوز علاقة مريض طوارئ بقسم الإسعافات العاجلة ، ولكن قلبك يحتاج إلى علاج حقيقى وجاد .

تمتمت فى عنادٍ :

ـ أعلم ذلك .

قال فى حزم :

ـ ولكنك لاتعلمين ماهِيَّة ذلك القلب ، الذى ترهقينه بعنادك .. إنه مِضخَّة الحياة ، تلك المضخَّة التى تدفع الدم إلى كل خليَّة من خلاياك ، والتى تعمل طِيلَة العمر .. وهذه المضخَّة تتكوَّن من أربع حجرات ..

قاطعته :

منزلى يتكوَّن من حجرة واحدة .

وجد نفسه يبتسم لتعليقها ، على الرغم من المرارة ، التى نطقت بها عبارتها ، ثم تابع بنفس الحزم :

ـ هذه الحجرات الأربع هى الأُذَيْنين : الأيمن والأيسر ، والبُطَيْنين : الأيمن والأيسر كذلك ، والعبء الأكبر يقع على الأخيرين ، حيث يضخ أوَّلهما الدم إلى الرئة ، لتتم تنقيته ، وإمداده بالأكسوجين النقىّ ، فى حين يضخُّ الثانى ، عَبْرَ

الشريان الأُورْطى الدم لكل أجزاء الجسم .. ولكل من هذين البُطَيْنين صمام حازم ، مهمَّته هى أن يفتح أبوابه أمام ضخ الدم ، وإغلاقها أمام أى قطرة دم تحاول العودة من الشرايين إلى البطينين ..

تمتمت فى ضيق :

ـ لقد درست هذا فى علم الأحياء .

هتف :

ـ عظيم .. سيمكنك استيعاب حقيقة مرضك إذن .. لقد أصيب الصمامان بنوع من الضِّيق والتصلُّب ، بحيث صار ضيقهما عقبة فى طريق ضخ الدم ، وتصلبهما مانعًا من الحفاظ على هذا الدم فى الشرايين ، وهكذا يجد القلب صعوبة فى دفع الدم إلى شرايين الجسم ، وفى الوقت ذاته يأتيه ارتجاع دموى عَبْرَ الصمام المتصلِّب ، وهذا يجعل خلايا جسدك عطشى للدماء ، ويضيف حملًا زائدًا إلى قلبك ، و .....

قاطعته فى صرامة :

ـ أريد أن أرحل .

صمت ، وهو يتأمَّلها فى ضيق ، ثم قال فى حزم :

ـ فليكن .. هذا شأنك .

انتزعت قناع الأكسوجين عن وجهها ، وهى تنهض قائلة فى حدَّة :

ـ شكرًا لك .

خلع معطفة الطبىّ ، وهو يقول :

ـ سأوصلك إلى منزلك .

قالت فى حدَّة :

ـ لست أحتاج إلى ذلك ، سأبحث عن واحدة من سيارات الأجرة ، و .....

قاطعها فى حزم :

ـ سأوصلك .

حمل صوته إليها نبرة آمرة ، جعلتها تستكين ، وتغمغم :

ـ لا بأس .

ارتدى سترته ، وقال فى نفس اللهجة الآمرة :

ـ هيَّا .

وعلى الرغم من طبيعتها العنيدة ، إلا أنها تبعته فى استسلام ، فقد كانت تحتاج إلى العودة إلى منزلها ، وتشتاق إليه ..

كانت ترغب فى الذهاب إلى مكان تألفه ..

إلى أرض تملكها ..

كانت تشعر بالضياع ..

الضياع التام ..

وفي استسلام ، دلفت إلى سيارته المصرية الصنع ، وجلست على المقعد المجاور له صامتة ، حتى أدار محرّك السيارة ، وسألها في هدوء :

ــ إلى أين ؟

أجابته في خُفوت :

ــ السيّدة زينب .

انطلقت بالسيارة على الفور ، ولاذ بالصمت بدوره ، احترامًا لصمتها ، حتى غمغمت هي :

ــ إنني أعتذر .

سألها في هدوء ، دون أن يلتفت إليها :

ــ عن ماذا ؟

أجابته في حياء :

ــ عن ثورتي .. لقد أنقذت حياتي ، ثم واجهتك أنا في عصبيّة .

ابتسم قائلًا :

ــ لا عليك .. لست أقيم وزنًا لثورة مريض ، فليس على المريض حرج .

ثم استطرد في جدّية :

ــ ولكن قلبك يحتاج إلى العلاج حقًّا .

عادت تتمتم في مرارة :

ــ أعلم ذلك .

لاح لها أوّل الحيّ ، فأسرعت تضيف :

ــ توقَّف هنا .

سألها في هدوء :

ــ هل تقيمين هنا ؟

أجابته :

ــ نعم .. في الداخل .

قال مبتسمًا :

ــ لماذا نتوقَّف هنا إذن ؟.. سأوصلك إلى منزلك .

قالت في حزم :

ــ لا .. هنا يكفي .

ــ رفع حاجبيه في دهشة واستنكار ، وهو يقول :

ــ لماذا ؟.. هل ستقطعين ما تبقَّى سيرًا على قدميك ، في هذا الوقت المتأخّر ؟!

قالت فى صرامة :
ـ هذا أفضل من أن أعود إلى منزلى فى الرابعة صباحًا ، مع رجل غريب .
شاهدت علامات الضيق على وجهه ، فأسرعت تضيف :
ـ خاصة وأننى أسكن وحدى .
هتف :
ـ آه .. فهمت .
وأوقف سيارته على جانب الطريق ، ثم التقط من جيب سترته بطاقة أنيقة ، قدمها لها ، قائلًا :
ـ هذه بطاقتى .. اتصلى بى لو احتجت إلى أية مساعدة .
تمتمت فى حياء :
ـ سأفعل .. شكرًا لك .
وأسرعت تغادر سيارته ، وتبتعد فى خطوات سريعة ، ولكنه هتف بها :
ـ (وفاء) .
توقفت ، والتفتت إليه حائرة ، فابتسم قائلًا :
ـ تمهل فى سيرك ، فما يزال قلبك منهكًا .
أومأت برأسها مستسلمة ، وتمهلت هى فى سيرها ، على حين راح هو يراقبها لحظات ، قبل أن يغمغم :

ـ رائعة .
وانطلق بسيارته عائدًا إلى المستشفى ..
وعندما بلغت هى منزلها ، كانت تشعر بالارتياح ..
لقد كانت تحتاج إلى هذه اللمسة ..
لمسة الحنان ..
وكان هو شفيقًا حانيًا ..
أخرجت مفتاح باب منزلها من جيب صغير فى ثوبها ، ودفعته فى ثقب الباب ..
ولكن المفتاح لم يَغُص فى الثقب ..
وبنظرة واحدة ، أدركت أن الثقب قد تغيّر ..
وخفق قلبها هلعًا ..
مستحيل أن تكون قد أخطأت منزلها ..
ومستحيل أن تكون قد فقدت مفتاحها ..
إن هذا الذى تحمله بين أصابعها هو مفتاح الباب ..
إنها تعرفه ..
ماذا حدث لمنزلها إذن ؟..
وفجأة ، فتح رجل ضخم الباب ، وحدّق فى وجهها بصرامة ، وهو يهتف :
ـ من أنت ؟.. ماذا تريدين ؟

تطلَّعت إليه فى ذُهول ، وألقت — من خلف ظهره — نظرة على الشقة ..

إنها شقتها ..

صحيح أنها تزدحم بأثاث تجهله ، ولكنها شقتها ..

وهتفت :

— إنها شقتى .

أطلق الرجل ضحكة ساخرة ، وقال :

— حاولى إثبات ذلك .

ثم عاد إلى الشقة ، وصفق بابها فى وجهها ..

وصرخت هى فى مرارة :

— لا .. لا تسلبونى آخر ما تبقَّى لى ..

وردَّد الحىّ كله صدى صرختها ..

لا ..

* * *

٣ — المؤامرة ..

ألقى النقيب (خالد) ، الضابط (النوبتجى) بقسم شرطة (السيِّدة زينب) ، نظرة على ساعة معصمه ، التى أشارت عقاربها إلى السابعة وخمس دقائق صباحًا ، ثم رفع عينيه فى إشفاق إلى وجه (وفاء) الشاحب المنهك ، ونقَّل بصره فى ضيق إلى وجه صاحب المنزل الصارم ، قبل أن يقول فى ضيق :

— إنه القانون .

ازداد شُحُوب وجه (وفاء) ، وهى تقول فى مرارة :

— أى قانون هذا ؟.. وأى منطق هذا الذى يلقِى بفتاة مثلى فى عُرض الطريق ، لمجرَّد أنها عاجزة عن التصدِّى لهؤلاء الأوغاد ؟

قال (خالد) فى ضيق :

— إنه نزاع على شقة ، أنت تدَّعين أحقِّيتك فى سكناها ، وكذلك هذا الرجل ، ولكنه — من الناحية القانونية — صاحب الحق الأوَّل ، فهو يملك عقد إيجار رسمى .

صاحت فى حَنَق :

ــ لم يكن من الصعب أن يحصل عليه ، فهو قريب لصاحب المنزل ، الذى يرغب فى الاستيلاء على الشقة ، منذ زمن طويل .

قال (خالد) :

ــ ولكنك لا تملكين عقدًا .

هتفت :

ــ كنت أُقيم مع جدَّتى طيلة عمرى ، وهذا يعطينى الحق فى الإقامة بنفس الشقة .

أشاح بوجهه مغمغمًا :

ــ أقوال الشهود تتعارض مع ذلك .

هتفت فى ذُهُول :

ــ الشهود ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ نعم .. كل الشهود أكَّدوا أنك قد غادرت منزل جدَّتك منذ أكثر من عام ، وأنت تعلمين أن القانون يحتِّم .....

قاطعته صارخة :

ــ أى قانون هذا ؟.. إنهم كاذبون .. جميعهم كاذبون .. إننى أُقيم فى هذه الشقة منذ عامى الأوَّل .. لقد وُلِدت فيه ، ولم أغادره أبدًا .

كان يعلم أنها صادقة ..

شىء ما فى أعماقه أقسم له إنها كذلك ..

ربَّما لأنها هى الأضعف ..

ربَّما لأنها أكثر رقَّة ..

أو لأن قلبه يميل إلى تصديقها ..

المهم أنه كان واثقًا من صدقها ..

ولكن هذا لم يكن ليفيد أبدًا ..

القانون هو القانون ..

وفى خُفُوت ، تمتم :

ــ لا يوجد دليل واحد على هذا .

هتفت فى ألم :

ــ بل يوجد دليل قوى للغاية ، فلو أننى لم أكن أُقيم فى هذا المنزل ، فأين يمكننى أن أُقيم .

قال صاحب المنزل فى سُخرية :

ــ فى نفس المكان الذى غُدْتِ منه فجر اليوم .

احتقن وجهها ، واحمرَّت أرنبة أنفها فى غضب ، وهى تهتف فى وجهه :

ــ اخرس أيها الحقير .. إننى أشرف منك .

هزَّ كتفيه ، قائلًا :

ـــ من يدرى ؟
أحنَقَ أسلوبه (خالد) ، فهتف به :
ـــ صَهْ يا رجل .. لست أسمح بهذه التُرَّهات هنا .
ابتسم الرجل ابتسامة مقيتة ، وهو يقول :
ـــ كما تشاء يا سيِّدى .. كما تشاء .
اغرورقت عينا (وفاء) بالدموع ، وقالت فى انهيار :
ـــ أيَعْنِى هذا أننى قد خسرت منزلى ؟
مطَّ (خالد) شفتيه فى أسف ، وقال :
ـــ ليس بعد .. صحيح أننا لانملك ـــ فى الظروف الحالية ـــ أن نُخرج هذا الرجل من منزل يمتلك عقدًا لاستئجاره ، ولا يمكننا أن نسمح لك بالحصول على هذا المنزل ، وأقوال الشهود على ما هى عليه ، ولكن يمكنك اللُّجوء إلى القضاء، و .....
قاطعته فى مرارة :
ـــ القضاء ؟!.. أتَعْنِى أن أبحث عن محامٍ ، يبتزّ أموالى ، وأنتظر سنوات وسنوات ؟
ارتسمت ابتسامة ظافرة على شفتى صاحب المنزل ، وهو يقول :
ـــ إننى مستعد لهذا .

صاحت به فى حَنَق :
ـــ أما أنا فلا ..
وتدفَّقت الدموع من عينيها ، وهى تنهض مستطردة :
ـــ سينتقم لى الله (سبحانه وتعالى) .. إنه نصيرى الوحيد .
رسم صاحب المنزل على وجهه عطفًا زائفًا ، وهو يدسّ يده فى جيبه ، قائلًا بابتسامته الكريهة :
ـــ كَفَى .. إنك تمزقين قلبى .. خُذِى هذا .
وضع فى يدها حفنة من الأوراق المالية ، فحدَّقت فيها فى دهشة ، هاتفة :
ـــ ما هذا ؟
ابتسم فى خُبْث ، وهو يقول :
ـــ أربعمائة جنيه .. اعتبريها معاونة على .....
قبل أن يتمَّ كلمته ، كانت كل كراهيتها قد اجتمعت فى أصابعها ، وانقبضت معها على أوراق النقد ، ثم تحوَّلت إلى قنبلة ، انطلقت تقذف كل الأوراق فى وجهه ، وهى تهتف غاضبة :
ـــ ابتعد أيها الوغد .. ابتعد عنِّى ، وخُذْ نقودك اللَّعينة .
هزَّ كتفيه فى لا مبالاة ، وانحنى يجمع نقوده ، مغمغمًا :

ـ لا بأس .. خيرًا تفعل شرًّا تجد .

بصقت فى وجهه فى حَنق ، ثم اندفعت مغادرة قسم الشرطة ..

إنها مؤامرة ..

حتمًا هى كذلك ..

مؤامرة تهدف إلى القضاء عليها ..

تهدف إلى تحطيم قلبها المريض ..

وقتلها ..

إنها لم تعُد تملك شيئًا ..

حتى المأوى خسرته ..

أصبحت ضائعة بحقّ ..

راحت تبتعد عن القسم فى سرعة ، دون أن تدرى إلى أين تقودها قدماها ..

وتعلّقت يدها بسلسلة ذهبية تتدلّى من عنقها ..

إنها آخر ماتبقّى لها ..

سلسلة ورثتها عن أمها ، وأصبحت تعتزُّ بها كثيرًا ، وكأنما تجد فيها مايذكّرها بتلك الأم الحنون ، التى لم يمهلها القدر مايكفى ، لترسخ صورتها فى ذهنها ..

لقد بذلت أقصى جهدها لتحتفظ بتلك السلسلة الذهبية ..

باعت أثاثات المنزل ، ورفضت أن تبيعها ..

كانت تشعر أنها ستبيع أُمها لو فعلت ..

ولكنها الآن لم تعُد تملك خيارًا ..

لقد ألقوا بها فى عُرض الطريق بلا رحمة ..

بلا وازع من ضمير ..

وتشبّثت بالسلسلة ، وهى تستقل الحافلة إلى حىّ (الحسين) ..

إلى الصاغة ..

وعندما خلعتها من حول عنقها ، بكت عيناها ألمًا ، وخفق قلبها المريض حزنًا ..

ونقدها الصائغ مائتين من الجنيهات ..

هذا هو ثمن ذكرى أُمها ..

فقط مائتين من الجنيهات ..

وحملت المبلغ ، وغادرت حىّ الصاغة وهى تبكى ..

تبًّا للنقود ..

تبًّا لذلك الشىء الذى يحنى الهامات ..

وعلى حافَة أحد الأسوار ، جلست تجفّف دموعها ، وتفكّر ..

إن كل ماتملكه الآن هو مائتى جنيه ..

وقلب مريض ..

ماذا يمكنها أن تفعل ؟..

إنها تحتاج إلى غذاء وعمل ..

وإلى مأوى ..

نعم .. إلى مأوى ..

هذا هو الأهم ..

الفتاة بلا مأوى تصبح مطمعًا للذئاب ..

ذئاب البشر ..

ولكن أين تجد هذا المأوى ؟

راحت تدير عينيها فى المكان ، حتى توقَّفتا عند لافتة قديمة ، كُتِبَ عليها بخط لفظه الزمن : (بنسيون الحسين) ..

وعلى الرغم من قدم اللافتة والمبنى ، إلا أن الأمر بدا ملائمًا لما تحمله من نقود ، فاتجهت فى خُطُوات حاسمة إلى المبنى ..

وبدأت قصتها ..

* * *

٤ ــ النــزيلة ..

كان ذلك (البنسيون) فى الدور الثانى من المبنى ، ولكن تلك الدرجات الضخمة المرتفعة ، وذلك القلب المريض المتهالك ، جعلا الأمر يبدو لـ (وفاء) كما لو أنها تصعد ناطحة سحاب ، وعندما بلغت (البنسيون) ، كانت تلهث فى شدة ، فقرَّرت أن تتوقَّف لالتقاط أنفاسها أوَّلًا ..

كانت تخشى أن يراها صاحب (البنسيون) على هذا الحال ، فيخشى أن يمنحها حجرة عنده ..

هذا لو كانت لديه حجرات خالية ..

وعندما انتظمت أنفاسها ، وهدأ خفقان قلبها ، طرقت الباب فى هدوء ..

ورَانَ الصمت لحظة ، ثم سمعت وقع أقدام تقترب من الباب ..

وانفتح الباب .

فتحه رجل فى أوائل الأربعينات من عمره ، وسيم الملامح ، وَخطَ الشَّيْبُ فَوْدَيْهِ ، فمنحه مظهرًا أكثر وسامة ، وبدا وجهه

الحليق معبرًا عن طبقة لا تنتمى أبدًا إلى تلك الأحياء الشعبية ، وخاصة مع زيّه الأنيق البسيط ..

وعيناه ..

كانت عيناه قصة كاملة ..

كانتا سوداوين ، حانيتين ، يطلُّ منهما حزن دفين عميق ، يبدو للناظر كما لو أنه جزء من تكوينهما المتناسق ، أو أنه قد سكنهما ليحتمى بحاجبيها الكثّين ..

ورَانَ الصمت طويلًا ، وهى تتطلّع إلى عينى الرجل ، الذى رسم على شفتيه ابتسامة هادئة وقورًا ، وهو يسألها فى هدوء ، وفى لهجة تشفُّ عن تهذيب شديد :

ـــ هل من خدمة يمكننى تقديمها ؟

انتزعها صوته من تطلّعها إليه ، فتنحنحت فى حرج ، وتمتمت :

ـــ أأنت صاحب هذا (البنسيون) ؟

سألها فى هدوء :

ـــ ما الذى تريدينه منه ؟

غمغمت ، وقد شعرت بحرج عجيب :

ـــ أريد .. أريد حجرة خالية .

بدت لها ابتسامته حانية للغاية ، وهو يتأمّلها بعينيه ، قبل أن يَفسح لها فى الطريق ، قائلًا :

ـــ يمكنك سؤال صاحبة المكان .

سألته فى دهشة :

ـــ ألست أنت .....؟

لم تتمّ سؤالها ، ولكنه فهمه ، وأجاب بنفس الابتسامة :

ـــ لا .. أنا نزيل هنا .

ارتفع صوت من الداخل يقول :

ـــ من يا أستاذ (أشرف) ؟

التفت هو إلى مصدر الصوت ، قائلًا :

ـــ نزيلة جديدة يا مدام (أنجيل) .

ثم ابتسم لـ (وفاء) ، وابتعد إلى مقعد وثير قديم الطراز ، وترك جسده يسترخى بين ذراعيه ، فى نفس اللحظة التى وصلت فيها سيّدة بدينة بعض الشىء ، يشفُّ لون بشرتها الوردى ، وشعرها الأشقر ، وعيناها الزّرقاوين عن أنها أجنبيه المولد ، ولقد تطلّعت إلى وجه (وفاء) فى إمعان ، قبل أن تقول بلكنة تؤكد بُعْد مَنشئها :

ـــ هل تريدين حجرة هنا ؟

أومأت (وفاء) برأسها إيجابًا ، فعادت السيّدة تتفرّس فى ملامحها فى إمعان ، ثم قالت :

ـــ هل أنت متزوّجة ؟

تمتمت (وفاء) :
ـ لا .. إننى طالبة بكلية الفنون الجميلة .
رفعت السيِّدة حاجبيها ، وقالت :
ـ آه .. طالبة ..
ومضت لحظات أخرى من الصمت والفحص ، قبل أن تفسح لها الطريق بِدوْرِها ، مستطردة :
ـ الأجرة ثلاثة جنيهات يوميًّا .
تمتمت (وفاء) :
ـ لا بأس .
ألقت السيِّدة (أنجيل) نظرة على يديها ، وقالت :
ـ هل تملكين أيَّة حقائب ؟
هزَّت (وفاء) رأسها نفيًا ، وقالت فى ألم ومرارة :
ـ لا .. لست أملك شيئًا .
أجابتها (أنجيل) فى حزم :
ـ فى هذه الحالة ، ستدفعين أجر أسبوعين مقدَّمًا .
أومأت (وفاء) برأسها إيجابًا فى استسلام ، وأخرجت نقودها من جيب ثوبها ، ونقدتها خمسين جنيهًا ، مغمغمة :
ـ هذا مبلغ تحت الحساب .
مطَّت (أنجيل) شفتيها ، وهى تتناول المبلغ ، وقالت :

ـ هذا يكفى .
ثم استطردت فى حزم :
ولكنك تملكين بطاقة شخصية .. أليس كذلك ؟.. أنت تعلمين ضرورة إبلاغ الشرطة عن كل نزيل .
تمتمت (وفاء) ، وهى تناولها بطاقتها :
ـ أعلم ذلك .
تناولت (أنجيل) البطاقة ، وألقت نظرة على محتوياتها ، ثم فتحت دفترها ، وراحت تدوِّن به ما تحويه البطاقة ، وهى تغمغم :
ـ هذا لاستكمال الرسميات فحسب ، ولكن من حقِّك ألا يعلم أى نزيل هنا شيئًا عنك .
غمغمت (وفاء) :
ـ حقًّا ؟!
اختلست (أنجيل) نظرة إلى (أشرف) ، وقالت :
ـ نعم .. من حقِّ كل نزيل هنا أن يخفى حقيقة شخصيته عن الجميع .
ثم استدركت فى حزم :
ـ فيما عداى .
وأعادت إليها بطاقتها ، وأغلقت دفترها ، مستطردة :

ـ تعالىْ معى .

تبعتها (وفاء) إلى رَدهة طويلة ، تضمَ أربع حجرات ، ودفعت (أنجيل) باب الحجرة الثانية ، وهى تقول :

ـ ستكون هذه حجرتك .. والأجر يتضمَّن الإفطار ، أما الغداء والعشاء فستتكفَّلين بهما .

كانت الحجرة تَحْوى سريرًا وصوانًا ومكتبًا صغيرًا ومقعدين ، ولكنها كانت نظيفة ، فغمغمت (وفاء) فى ارتياح :

ـ لا بأس .

أضافت (أنجيل) :

ـ الحجرة الأولى هى حجرة الأستاذ (أشرف) ، والثالثة حجرتى ، أما الرابعة فيقيم فيها الأستاذ (عطا الله) ، وهو كهل بلغ سنّ المعاش منذ سنوات ..

سألتها (وفاء) بغتة :

ـ من أين يمكننى شراء بعض أدوات الرسم ؟

تطلَّعت إليها (أنجيل) فى دهشة ، ثم أجابت :

ـ هناك عشرات الأماكن حولنا ، فبيت الفن على مَقْرَبَة من هنا .

ثم سألتها فى فُضُول :

ـ هل طلبت الكلية منك ذلك ؟

هزَّت (وفاء) رأسها نفيًا ، وقالت :

ـ لا .. إنه عمل ..

ولم تكن كاذبة ..

لقد خطرت الفكرة برأسها ، وهى تتأمَّل المكان بطرازه العريق ..

إنها موهوبة فى فن الرسم ، باعتراف الجميع ، فلِمَ لا تحترف هذه المهنة ؟

سترسم اللوحات ، وتبيعها للمتاجر الفنيَّة ..

سترسم مسجد (الحسين) ..

وستروُق رسومها للسائحين بإذن الله .

هذا ما تتمنَّاه ..

وناولتها (أنجيل) مفتاح الحجرة ، قائلة :

ـ ستكونين مسئولة عن نظافة حجرتك ، أو تتولَّى (نبوية) الخادمة هذا ، مقابل عشرة جنيهات شهريًّا .

تمتمت :

ـ لا .. سأعمل على نظافتها بنفسى .

مطَّت (أنجيل) شفتيها ، وغمغمت :

ـ هذا أفضل .

أغلقت (وفاء) باب حجرتها ، وقالت :

ــ حسنًا .. سأذهب لشراء أدوات الرسم ، وأعود لأنام ، فلم أنَمْ منذ البارِحة .

تمتمت (أنجيل) ، وكأنما الأمر لا يعنيها :

ــ كما يحلو لك .

عَبَرَت (وفاء) الرَّدهة الطويلة ، وألقت نظرة على (أشرف) ، الذى ابتسم تلك الابتسامة الهادئة ، وهو يقول :

ــ هل رَاقَ لك المكان ؟

أجابته بابتسامة متوتِّرة :

ــ جدًّا ..

أسبل جفنيه فى هدوء ، وهو يتمتم :

ــ عظيم ..

لحظتها شعرت أن هذا الرجل يخفِى فى أعماقه لُغزًا ..

وكانت على حقّ ..

لقد كان يخفِى أكبر لُغز فى حياتها ..

لُغز حياتها نفسها ..

* * *

٥ ــ اللُّغـز ..

ارتيــاح شديــد شعــرت به (وفـــاء) ، فى ذلك (البنسيون) ، على الرغم من مرضها ..

أُلفة رائعة ، تلك التى كانت تربط بين نزلائه وصاحبته ..

وعلى عكس ما بدا لها فى البداية ، كانت مدام (أنجيل) ، صاحبة المكان ، سيِّدة حَنُونًا عطُوفًا ، تُولِى النزلاء جُلَّ اهتمامها ، كما لو كانت أُمًّا رءُومًا لهم ..

كانت تستيقظ فى الصباح المبكِّر ، وتُعِدّ طعام الإفطار ، ثم تدُقّ أبواب الحجرات فى رِفق ، داعية الجميع للاستيقاظ ، وكانت تخصُّ (وفاء) بقُبلة حانية ، تحمل الكثير مما افتقدته هذه الأخيرة من حنان أُمها ..

وبعد أسبوع واحد ، كانت (وفاء) قد علمت الكثير عن المكان ..

عرفت أن مدام (أنجيل) هذه سيِّدة يونانية الأصل ، هاجرت مع زوجها الراحل إلى (مصر) ، أيام كانت حكوماتها الملكية تمنح الكثير من الامتيازات للأجانب ، فى ظل الاحتلال البريطانى ..

وأيامها كانت (أنجيل) فى الخامسة عشرة من عمرها ..

وحاول زوجها أن ينشئ تجارة فى (مصر) ، ولكن قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو ، عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين ، حال دون ذلك ، فاكتفى بعمل بسيط فى أحد مطاعم منطقة (الحسين) ، واشتهر كثيرًا بدماثة خلقه ، وحبه الشديد للأطفال ، حيث حُرم هو و (أنجيل) الإنجاب ..

وعاشت (أنجيل) محرومة من الأطفال ، فراحت توزّع عاطفة الأُمومة فى أعماقها على سكّان الحىّ ، حتى بلغت الأربعين من عمرها ..

ثم تُوفّىَ زوجها ..

وبوفاته فقدت (أنجيل) عائلها ، ودخلها ..

ومن هنا جاءت فكرة (البنسيون) ..

لقد كانت تعيش فى منزل ضخم ، من أربع حجرات ، فقرّرت أن تجعل منه فندقًا صغيرًا ، يمنحها دخلًا كافيًا للعيش ، ويؤنس وحدتها بنزلائه !..

وعرفت منها (وفاء) أنها هى أوّل فتاة تنضمّ إلى قائمة النزلاء ، بل صارحتها (أنجيل) فى بساطة بأنها قد تخوّفت منها فى البداية ، ثم لم تلبث أن أحبّتها وشُغِفتْ بها ، خاصة وأنها كانت تتمنّى إنجاب ابنة ..

وبدوْرِها قصّت عليها (وفاء) قصة وفاة جدّتها ، وما سبق ذلك من أحداث ، وما تلاه من أمر استيلاء صاحب المنزل على شقتها ..

ولكنها لم تخبرها بأمر مرض قلبها ..

فضّلت أن تحتفظ لنفسها بهذا السّرّ ..

إنه سرّها ..

وحياتها ..

ولقد اعتادت أن تصعد فى درجات سُلّم البِناية رُوَيْدًا رُوَيْدًا فى بطء ، حتى لا تُجهد قلبها ، واعتادت أن تتوقّف أمام باب (البنسيون) ، حتى تسترد أنفاسها ، ويتوقّف قلبها الضعيف عن الخفقان ، قبل أن تدخل إليه ..

كانت وكأنها تخجل من مرضها ..

وكأنه نقطة ضعف فى حياتها ..

ولقد عاونها على إخفاء أمرها أن أحدًا لم يكن يتدخّل فى حياتها ..

حتى الأستاذ (عطا الله) ..

صحيح أنه كان يقصّ عليها قصته ، كلما اجتمعا معًا فى إحدى الأمسيات ، ولكنه أبدًا لم يسألها عن قصتها ، أو يحاول فرض نفسه على حياتها ..

وللأستاذ (عطا الله) هذا قصة عجيبة ..
بل هى مأساة ..
لقد تزوَّج ــ كمعظم بنى جيله ــ وهو بعد فى الثامنة عشرة من العمر ، وأنجب عشرة أبناء وبنات ، وقضى حياته كلها موظَّفًا بسيطًا ، يكافح لإعالة أولاده ، وتعليمهم ، ثم تزويجهم ..
ثم تُوُفِّيت زوجته ، قبل أن تنتهى الرحلة ..
تُوُفِّيت وتركت له بنتًا وولدًا لم ينتهيا من تعليمهما بعد ..
وتزوَّجت الابنة ..
وبقى الابن ..
وكان هو الذى صنع المأساة ..
كان آخر العنقود ، كما يُطلق عليه العامة ..
شاب أنانى ، مدلَّل ، اعتاد الحصول على كل ما يرغب ، دون عناء أو إحساس بالمسئولية ..
وكان نبع الأستاذ (عطا الله) قد نضَبَ ...
كان قد أنفق آخر قرش لديه لتزويج ابنته الأخيرة ، ولم يَعُد يملك سوى راتبه ..
ثم أعلن ذلك الشاب أنه ينوى الزواج ..
وفرح الأستاذ (عطا الله) ..

فرح فرحة حقيقية ؛ لأن آخر أبنائه سيتزوَّج ..
ولم يعترض عندما أعلن ابنه أنه سيتزوَّج فى شقة والده ..
ولم يعترض أيضًا ؛ لأن عروسه تنتمى إلى وسط أدنى منهم كثيرًا ..
لقد أسعده أنها قد قبلت أن تحيا فى نفس الشقة ، ودون شراء أثاثات جديدة ..
كان هذا وحده يكفى ــ فى نظره ــ لأن يتجاهل كل التفاصيل الأخرى ..
وجاءت الزوجة ..
وعاشت فى المنزل ..
ومنذ الشهر الأوَّل ، أدرك (عطا الله) طبيعة زوجة ابنه ..
كانت أنانية ، شرسة ، متسلِّطة ..
وبدأ الصراع البارد بينهما ..
كانت تسىء معاملته وتتعمَّد التحدُّث إليه بأسلوب غير لائق ، وتظهر تبرُّمها من وجوده بالمنزل ، وكأنما هو ضيف عليها وعلى زوجها ، لا العكس ..

ثم بدأت فى افتعال شجارات بينها وبينه ، تكيل له فيها السِّباب ، ثم تشكوه لابنه عند عودته من عمله ..

واتخذ الابن موقفًا معاديًا لوالده ، الذى لم ينبس بِبِنْتِ شَفَة ، وراح يحتمل فى صمت ..

ثم حدثت الطامَّة الكبرى ..

اتهمته زوجة ابنه بسرقة مصاغها ..

لم تتَّهمه عائليًا ..

بل رسميًا ..

أبلغت الشرطة بأنه قد سرق مصاغها ..

وحضر رجال الشرطة ..

وألقوا القبض على (عطا الله) ..

وبكى الرجل كما لم يبكِ من قبل ..

ولعن ذلك اليوم الذى أنجب فيه ابنه هذا ..

ثم تدخَّل أبناؤه ..

وتنازل الابن عن البلاغ ..

وتم الإفراج عن الأستاذ (عطا الله) ..

ومن يومها ، لم يعُد الأستاذ (عطا الله) إلى منزله ..

لقد اتجه إلى (بنسيون أنجيل) ، وبقى فيه ..

وكان ينفق نصف معاشه ثمنًا للبقاء فى المكان ..

والنصف الآخر ثمنًا لطعامه وصحفه ..

وحفرت المأساة آثارها على ملامحه ، فبدا دومًا حزينًا آسفًا ، يردِّد اسم ابنه ، ويدعو له بالهداية ..

وهكذا صارت (وفاء) تعلم كل شىء عنه تقريبًا ..

على عكس (أشرف) ..

هو وحده بقى لها لُغزًا ..

إنها لم تعرف حتى اسمه الكامل ، بعد مضى أسبوع من إقامتهما معًا ..

إنها تعرف أن اسمه هو (أشرف) ..

(أشرف) فحسب ..

وهو دومًا دمث الخلق ، شديد التهذيب ، ترتسم ابتسامة هادئة على شفتيه ، دون أن تنجح فى مَحْوِ ذلك الحزن الغائر فى عينيه ..

ولم يكن يغادر (البنسيون) إلا فيما ندر ..

كان يستيقظ مبكرًا ، ويجلس فى شُرفة المنزل ، يتابع المشاهد فى هدوء وصمت ، حتى يأتيه عم (مندور) بائع الصحف بِرِزْمة من صحف الصباح ، والكتب والمجلات العربية والأجنبية ، فيعكف على مطالعتها فى اهتمام ، حتى يحين موعد الغداء ، فيتناول النَّذر اليسير من الطعام كعادته ..

كان الصمت والحزن هما سمة حياته ..

وكان يحمل الكثير من الغموض ..

إنه يبدو أرستقراطيًا ، على عكس ذلك الحىّ الشعبىّ ، الذى اختاره لسكناه ، فهو يُعْنَى دومًا بثيابه ، ويرتدى عادةً أفخرها ، وأكثرها أناقة وبساطة فى نفس الوقت ، وتحيط بمعصمه ساعة من طراز ثمين ، مصنوعة من الذهب الخالص ، ويبتاع صحفًا ومجلات بما يفوق أجر (البنسيون) ..

فأى لُغز يخفيه ؟..

ولم يكن (أشرف) يتحدَّث عن نفسه أبدًا ..

حتى ولو شارك الجميع أحاديثهم ، فى الأمسيات ، فهو يختار موضوعًا عامًّا ، أو نقاشًا مفتوحًا ، حتى إذا ما تطرَّق الحديث إلى الأمور الشخصية ، لاذَ هو بالصمت ، واكتفى بالاستماع ، وشفتاه تحملان تلك الابتسامة الرصينة الوقُور ..

وكان مثقفًا للغاية ..

ويجيد اللغة الإنجليزية إلى درجة تقارب الكمال ..

ويمتلك ذوقًا وحسًّا فنيًّا جيِّدًا ..

هذا ما لاحظته (وفاء) ، عندما اختارت الشُرفة مرَّة لترسم إحدى لوحاتها ..

يومها جلس يتابع عملها فى هدوء ، حتى سألته :

ـ ما رأيك ؟

أجابها فى جدِّية :

ـ خطوطك جيِّدة ، تشفُ عن موهبة فطرية ، ولكن أصابعك تنقصها الثقة .

تمتمت :

ـ ربما لأنها أوَّل لوحاتى كمحترفة .

ابتسم تلك الابتسامة الهادئة ، وقال :

ـ حتى المحترف لابدَّ أن يكون هاويًا فى أعماقه ، فعندما رسم (ليوناردو دافنشى) لوحته الشهيرة (الجيوكندا) ، كان يرسمها كمحترف ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يبثَّ فيها موهبته كلها ، وكذلك (مايكل أنجلو) ، وهو يرقد على ظهره لسنوات ، راسمًا سقف كنيسة (سكستين) ، لم يفكِّر كمحترف ، على الرغم من تقاضيه مبلغًا باهظًا لقاء عمله .. المهم أن يمنح المرء عمله كل الحب ، وبعدها سيحترف هوايته ، وسيهوَى احترافه .

هتفت فى دهشة :

ـ أين قرأت كل هذا ؟

أجابها فى هدوء :

ـ فى كتب الفن .

قالت فى انبهار :

ــ ولكنك تتحدَّث كمحترف ، فكتب الفن لا تمنح قارئها الذَّوق وجمال الحس .

أطرقَ برأسه لحظات ، وأجاب فى خُفوت :

ــ فلنقل إننى أهوَى الفن .

سألته فى فُضُول :

ــ وهل منحتك هوايتك الخبرة الكافية ، لتعلم أن أصابعى تفتقر إلى الثقة ، وأنا أرسم لوحتى ؟

خُيِّل إليها أن سؤالها قد أصاب هدفًا شديدَ الحساسية ، فلقد تضاعف ذلك الحزن فى عينيه بغتة ، وبدا كما لو أنه قد تحوَّل إلى نيران هائلة ، أو أن دموعه ستتفجر بين لحظة وأخرى ، قبل أن يشيح بوجهه عنها ، مغمغمًا فى حزن وألم :

ــ يمكنك أن تقولى إننى أدرك تمامًا ما الذى يعنيه افتقار الأصابع إلى الثقة ؟

أنبأتها غريزتها أن جوابه هذا يحمل سرّ مأساته كلها .. وتضاعف فُضُولها لكشف ذلك اللُّغز ..

ولم تكد تختلى بـ (أنجيل) ، حتى سألتها فى فُضُول :

ــ ماذا تعرفين عن الأستاذ (أشرف) ؟

تطلَّعت إليها (أنجيل) فى دهشة ، قبل أن تجيب فى حَذَر :

ــ كل شىء .. لِمَ تسألين ؟

أجابتها (وفاء) بلا مُواربة :

ــ إنه يثير فُضُولى فى شدة ، فهو يخفِى أمرًا ما .

قالت (أنجيل) فى لهجة تحمل نبرة صارمة :

ــ من حقِّ كل إنسان أن يُخفى ما يشاء .

أجابتها فى لهفة :

ــ بالطبع ، ولكنْ هناك أمور لا يضير كشفها ، مثل اسمه الكامل مثلًا ، ومهنته .

حَدَجَتها (أنجيل) بنظرة صارمة حازمة ، وهى تقول :

ــ هذا يتوقَّف على وجهة نظر الشخص نفسه .

قالت (وفاء) فى ضيق :

ــ أتعْنِين أنه يرفض كشف هذا ؟

أجابتها فى حزم :

ــ هذا من حقِّه .

هتفت فى حَنَق :

ــ لماذا ؟.. لماذا يخفى شخص ما اسمه أو مهنته ؟

هزَّت (أنجيل) كتفيها ، قائلة :

ــ هذا شأنه .

ثم أضافت فى حزم :

ـ اسمعى يا (وفاء) .. أنت تعلمين أننى أحبك ، وأعتبرك بمثابة ابنتى ، ولكننى فى الوقت ذاته مسئولة عن راحة كل نزيل هنا ، وعن أسراره ، وهذا الرجل يرغب فى إخفاء أمور خاصة به ، لأسباب هو وحده يدركها ، ويقدّر أهميتها ، وما دام ليس لصًا ، فليس من حقّ أحد انتهاك حُرمة أسراره .

شعرت (وفاء) بالخجل ، وغمغمت :

ـ إننى أعتذر .

ابتسمت مدام (أنجيل) فى حنان ، وهى تربّت على وجنتها ، قائلة :

ـ لا عليك .

وقبّلتها فى أمومة ، ثم تركتها وحدها فى حجرتها ..

ولكن فُضُول (وفاء) لم ينته ..

ولم يخفت ..

ما زال يلتهب شوقًا لمعرفة الكثير عن (أشرف) .. عن اللُّغز ..

* * *

٦ ـ الحنان ..

انتهت لوحة (وفاء) ..

انتهت فى الوقت المناسب بالفعل ..

لقد حرصت أشدّ الحرص على تلك النقود ، التى باعت بها سلسلة أمها الذهبية ، ولكن أجر (البنسيون) ، وثمن طعامها وشرابها ودوائها ، وذلك المبلغ الضخم الذى ابتاعت به أدوات الرسم واللوحات ، امتصّ كل نقودها ، ووجدت نفسها بعد انتهاء اللوحة شبه مُفلسة ، مما زاد من رغبتها وأملها فى بيع اللوحة ، لتجد ما تتقوّت به ، وتدفع منه أجر (البنسيون) فى الشهر التالى ..

وعندما انتهت من اللوحة ، ووضعت اللمسات الأخيرة عليها ، التفتت إلى (أشرف) ، الذى يتابع عملها فى اهتمام ، وسألته فى قلق :

ـ ما رأيك ؟

أجابها على الفور ، وكأنما يُعدّ الجواب مسبقًا :

ـ رائعة .

ابتسمت وهى تقول :

ــ لا تجاملنى .. قُلْ رأيك الحقيقى ، فهو عمل محترفة .

أجاب فى هدوء :

ــ بل عمل فنانة .

شعرت بفخر وزهوٍ حقيقيين ، لمجرَّد أنه قد وصفها بهذا ، وكأنما لم يَعُد يعنيها فى العالم كله سوى رأيه وحده ..

أو أن هذه هى الحقيقة ..

لقد قضت معه ما يقرب من شهر كامل ، واعتادت ذلك الغموض الذى يحيط به ، وارتاحت لدماثة خُلقه ، وحسن معشره .. ، و .....

وأحبَّته ..

أو هكذا يُخيَّل لها ..

لقد وجدت فيه كل الحنان والرجولة والحب ..

كل ما تفتقده طِيلَة عمرها ..

ومع مرور الأيام ، صارت تنتظر لقاءه ، وتسعد به ..

ولم تَعُد تسأل عمَّن يكون ..

لقد أصبح بالنسبة إليها (أشرف) ..

فقط (أشرف) ..

بلا لقب ..

بلا ماضٍ ..

بلا تاريخ ..

حتى غموضه صار لها محبَّبًا ..

وكذلك وقاره ورصانته ..

لم تدرِ ما الذى جذبها إليه تدريجيًا ، ولكنها صارت اليوم تَهْوَاه ..

لم تَعُد تتصوَّر العالم دُونه ..

إنها ــ حتى وهى تسعى لسداد أجر لـ (البنسيون) لشهر آخر ــ تشعر أنها تفعل ذلك من أجله ..

من أجل أن تبقى إلى جواره ..

لقد نسيت معه حتى مرضها ..

واعتادت وهن قلبها ..

المهم هو ..

ولكن ما شعوره هو نحوها ؟..

إنه يتابع عملها بكل الاهتمام ، ولا يضنّ عليها بالنُصح والإرشاد والتشجيع ، ولكنه لم يمنحها ما يشير إلى الحب أبدًا ..

صحيح أنها لمحت فى عينيه لمحة حنان وحبّ يومًا ، وهو يتحدَّث إليها ، إلا أن تلك اللمحة امَّحَت فى سرعة ، وعادت عيناه إلى حزنهما وغموضهما ..

كان كمن يخشى أن يحبّ ..
أو كمن يخشى الحياة ..
وفى صوت خافت وحياء ، غمغمت :
ـــ أتظنها صالحة للبيع ؟
أجابها فى هدوء :
ـــ بالطبع .
ثم أضاف :
ـــ للأسف .
هتفت فى دهشة :
ـــ للأسف ؟!
ابتسم فى حرج ، وهو يقول :
ـــ كنت أقصد أنها لوحة جميلة ، حتى أنه لما يؤسف له أن تُباع .
ابتسمت فى سعادة ، وغمغمت :
ـــ شكرًا لك .
ثم نهضت تحمل لوحتها ، وأضافت :
ـــ سأذهب لأرى رأى أصحاب المتاجر .
سألها فى اهتمام حقيقى :
ـــ أتحتاجين إلى معاونة ؟

هزّت رأسها نفيًا فى خجل ، وهى تغمغم :
ـــ لا .. وشكرًا لك .
واتجهت إلى الباب حاملة لوحتها ، فأضاف هو فى حنان :
ـــ أخبرينى بما حدث ، فور عودتك .
هتفت فى سعادة :
ـــ سأفعل .
غادرت المنزل وهى تكاد تطير فرحًا ..
إنه يبادلها مشاعرها ..
الحنان على الأقل ..
يا له من رجل !!..
كم تتمنّى أن تصارحه بحبها ..
كم تحلُم بقُربه ..
كانت مُفعَمَة بالحب والسعادة ، وهى تتجه لبيع أولى لوحاتها ..
ثم تحوّل كل هذا إلى إحباط هائل ..
ومرارة ..
لقد فشلت فى بيع لوحتها ..
فشلت تمامًا ..
كل المتاجر الفنيّة التى زارتها ، أبدت إعجابها بخطوطها وألوانها ، ولكنّ كلها رفضت شراء اللوحة ..

قالوا جميعًا إن أحدًا لن يفكر فى شراء لوحة لمسجد (الحسين) ، خاصة وأنه هناك آلاف الصور الفوتوجرافية له ، ومئات اللوحات لكبار الفنانين ، وأن فرصتها ، كاسم غير معروف فى عالم الفن ، ضئيلة للغاية ..

وبعضهم طلب منها أن ترسم المشاهد الطبيعية ..

أو حتى الشعبية ..

وكان صنع لوحة أخرى يحتاج إلى الوقت ..

والمال ..

وكانت تفتقر إلى كليهما ..

وعندما عادت إلى (البنسيون) كانت منهارة تمامًا ..

لقد فقدت الأمل الوحيد، الذى بَنَت عليه كل أحلامها ..

وراحت تبكى فى حرارة ، وساعدها على ذلك أن المكان كان خاليًا ..

وفجأة، سمعت صوتًا جَزِعًا يهتف من خلفها :

ــ (وفاء) .. أتبكين ؟

لم تلتفت إلى مصدر الصوت ، فقد كان هو صاحبه ..

وآلمها أن يرى دموعها وضعفها ..

واتجه هو إليها فى حنان ، وانحنى يتطلّع إلى دموعها ، مغمغمًا :

ــ لا يا (وفاء) .. لا تبكى أبدًا .

قالت من بين دموعها :

ــ لقد فشلت .. لا أحد يرغب فى شراء لوحتى .

مدَّ أصابعه يجفّف دموعها فى حنان دافق ، وهو يقول :

ــ هم الخاسرون .. سيجثون أمامك يومًا ، طلبًا للوحاتك .

هتفت فى مرارة :

ــ عندئذ أكون قد مُتّ جوعًا .

عقد حاجبيه لحظة ، ثم عاد يمسح دموعها ، مغمغمًا :

ــ لن يحدث هذا أبدًا .

ثم أضاف فى حنان خفَق له قلبها :

ــ لن يحدث وأنا على قيد الحياة .

رفعت عينيها الدامعتين ، تتطلّع إليه فى صمت ، فابتسم فى حنان وإشفاق ، وهو يغمغم :

ــ الدنيا كلها لا تستحق دمعة واحدة منك يا (وفاء) .. هيًا جفّفى دموعك وابتسمى .

تمتمت فى مرارة :

ــ كنت أحتاج إلى ثمنها .

قال فى حنان :

ــ وستحصلين عليه .
ثم نهض ، وحمل اللوحة ، يتأمّلها فى صمت ، قبل أن يضيف :
ــ يبدو أنك لم تذهبى إلى المكان الصحيح .
قالت فى مرارة :
ــ لقد ذهبت إلى كل المتاجر الفنّية حولنا .
هتف :
ــ هنا فى (الحسين) ؟!.. لا .. أنت فنانة موهوبة ، وفنك سيجد من يقدّره فى أماكن أخرى .
سألته فى دهشة :
ــ مثل ماذا ؟
ابتسم مشجّعًا ، وهو يقول :
ــ اتركى لى هذا الأمر .
واتجه نحو الباب حاملًا اللوحة ، فهتفت به :
ــ انتظر .. سأرافقك .
ابتسم قائلًا :
ــ لا .. سأقوم بالعمل وحدى هذه المرّة .
وغمز بعينه ، مستطردًا :
ــ يمكنك اعتبارى مدير أعمالك .

بقيت فى مقعدها مستسلمة ، وهو يغلق الباب خلفه ، ثم انطلق عقلها يُلقى عشرات الأسئلة .
ما سرّ حنانه الغامر هذا ؟..
أهى طبيعته ، أم أنه يبادلها الحب ؟..
لماذا ارتجفت أصابعه ، وهو يجفّف دموعها ؟..
لماذا خفَق قلبها لهمساته ؟
ومن أعماقها ، تمنّت لو أنه يبادلها الحب حقًّا ..
وارتجف جسدها ، عندما سمعت صوت (أنجيل) الهامس ، وهى تقول :
ــ ياله من رجل !
التفتت إليها فى دهشة ، وهتفت :
ــ مدام (أنجيل) .. هل كنت هنا ؟
أومأت (أنجيل) برأسها إيجابًا فى حنان ، فأضافت (وفاء) فى اضطراب :
ــ منذ متى ؟
اجابتها وهى تبتسم :
ــ منذ البداية .
وعندما شاهدت ذلك الاحمرار ، الذى تخضّب به وجه (وفاء) ، أضافت :

ـــ ولقد كان الأستاذ (أشرف) معى ، يعاوننى فى بعض الأعمال ، عندما عُدت أنت من الخارج باكية .
تمتمت (وفاء) فى حرج شديد :
ـــ يا إلهى ! .
تطلّعت إليها (أنجيل) فى حنان ، ثم اتجهت نحوها ، وجلست على المقعد المقابل لها ، وربّتت على ركبتها ، مغمغمة :
ـــ يبدو أنك تعنين الكثير ، بالنسبة للأستاذ (أشرف) .
تخضّب وجه (وفاء) بحُمْرةِ الخجل مرّة أخرى ، وهى تغمغم فى حياء :
ـــ ماذا تعنين ؟ ؟
ابتسمت (أنجيل) ، وقالت :
ـــ لقد كان يجلس معى ، ولكنه لم يكد يسمع صوت بكائك ، حتى هبَّ من مقعده ، واندفع إليك كالصاروخ و ......
صمتت لحظة ، ثم أضافت فى حنان :
ـــ وهى أوّل مرّة أراه فيها حانيًا إلى هذا الحدّ .
تمتمت (وفاء) :
ـــ آه .. مدام (أنجيل) .. أرجوك ..

قاطعتها (أنجيل) :
ـــ إنه يحبُك يا (وفاء) .
خفقَ قلب (وفاء) فى عنف ..
خفقَ حتى أنها خشيت أن يتوقَّف ..
وأنطلقت نبضاته تزغرد فى صدرها ، وبين ضلوعها ..
يحبُها ؟!..
يا له من اعتراف جميل !!
يا لها من كلمة رائعة !!..
ووجدت نفسها تهتف فى لهفة :
ـــ أهو أخبرك بهذا ؟
أجابتها مبتسمة :
ـــ لا .. إنه لم يخبرنى .
بدا الإحباط على وجه (وفاء) ، فأضافت (أنجيل) :
ـــ كما لم تخبرينى أنت بأنك غارقة فى حبّه .
هتفت (وفاء) فى حياء :
ـــ مدام (إنجيل) .
ربّتت اليونانية العجوز على ركبة (وفاء) مرّة أخرى ، وقالت فى حنان عظيم :
ـــ الحب يا بنيّتى لايحتاج إلى القول .. إنه يطلّ من

العيون ، ويذُوب على الشفاه ، ويشرق على الوجه ، مهما حاول صاحبه إخفاءه ومداراته .. الحب يابنيَّتى هو زهرة جميلة ، يفُوح رحيقها مهما حاولنا سد أُنوفنا .. إنه الحياة والأمل ..

تمتمت (وفاء) :

ـ إذن فهو يحبُّنى .

أجابتها (أنجيل) :

ـ نعم يابنيَّتى .. إنه يحبُّك .. وسيظلّ يحبُّك حتى آخر العمر ..

انطلقت العبارة الأخيرة كناقوس إنذار قوى فى رأس (وفاء) ..

حتى آخر العمر ..

عمر من ؟!..

عمرها القصير ، الذى يهدِّده قلب حُكِمَ عليه بالفناء ، قبل أن يتخطَّى ريعان الشباب ؟..

أم عمر حبها المسكين ؟..

كيف نسيت ذلك ؟..

كيف أهمل عقلها مرض قلبها ؟..

كيف سمحت لنفسها بأن يُحَبّ ؟..

وبأن تُحَبُّ ؟!..

أى جريمة ترتكب فى حقِّ (أشرف) ؟..

إنها تسمح له بحبها ، وبالتعلُّق بها ، وهى تعلم أنها فانية .. ضائعة ..

تعلم أنها لن تجد الوقت الكافى لمنحه حبها ..

أو حتى لإرواء حبِّه لها ..

لا .. لن تحبه ..

لن تسمح له بحبِّها ..

وانهمرت من عينيها دموع الألم والمرارة ، فهتفت بها (أنجيل) فى جزَع :

ـ (وفاء) .. ماذا هناك يا بنيَّتى ؟

أجابتها فى ألم :

ـ لا يمكننى أن أسمح له بأن يحبنى يا مدام (أنجيل) .. لا يمكننى أن أفعل .

وانهمرت دموعها مرَّة أخرى كالطوفان ..

* * *

٧ ــ الليل ..

عاد (أشرف) مع غروب الشمس ..

عاد يحمل ابتسامته الهادئة ، وهو يسأله مدام (أنجيل) :

ــ أين (وفاء) ؟

أجابته فى حزن لم ينتبه إليه :

ــ فى حجرتها .

وأضاف الأستاذ (عطا الله) :

ــ إنها تبكى منذ ساعة على الأقل .

تلاشت ابتسامته ، وارتسم مزيج من الجزع والحنان على وجهه ، وهو يقول :

ــ تبكى ؟!

ثم التفت إلى (أنجيل) بعينين تحملان رجاءً ، أدركت هى على الفور مغزاه ، فقالت :

ــ سأذهب معك إلى حجرتها .

صحبته إلى حجرة (وفاء) ، وطرقت الباب قائلة :

ــ (وفاء) .. الأستاذ (أشرف) يرغب فى مقابلتك .. إنه هنا معى .. هل تسمحين لنا بالدخول ؟

هبَّت (وفاء) من فراشها ، وأسرعت تجفِّف دموعها ، وهى تقول :

ــ بالطبع .. تفضلا .

دفعت (أنجيل) باب الحجرة فى رفق ، ودلفت إليها فى هدوء ، فى حين بقى (أشرف) عند الباب ، وتطلّع إلى وجه (وفاء) فى حنان لحظات ، قبل أن يُجبر شفتيه على الابتسام ، مغمغمًا :

ــ لقد بعت اللوحة .

هتفت (وفاء) فى دهشة :

ــ بعتها ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وغمغم :

ــ لقد نقدنى البائع مائتى جنيه ، هل يناسبك الثمن ؟

قالها وهو يُخرج رزمة النقود من جيبه ، فغمغمت مبهورة :

ــ بالطبع .. إنه يكفى ويزيد .

ابتسم فى ارتياح ، وهو يتقدّم فى تردّد ، ويناولها المبلغ ، قائلًا :

ــ لقد أعجبتهم اللوحة كثيرًا ، وهم يريدون المزيد .

هتفت :

ــ حقًا ؟!..

رمقته (أنجيل) بنظرة امتنان جانبية ، ثم ربّتت على كتف (وفاء) فى حنان ، وهى تقول :

ــ ألم أقل لك إنك فنانة موهوبة ؟

أدارت (وفاء) عينيها إلى (أشرف) ، وقالت :

شكرًا لك يا أستاذ (أشرف) .. شكرًا جزيلًا .

تمتم :

ــ يسعدنى أن أعاونك يا (وفاء) .

سألته فى اهتمام :

ــ ولكن من المشترى ؟

تمتم مبتسمًا :

ــ رجل يهوى الفن ، وراقت له ريشتك كثيرًا .

ثم أضاف فى سرعة :

ــ والآن سننتظرك حول مائدة العشاء .

ابتسمت فى حياء ، وهى تقول :

ــ سأحضر .

انحنت (أنجيل) تطبع قبلة على وجنتها ، وهى تقول :

ــ وسأدعو الجميع لتناول العشاء على نفقتى الليلة احتفالًا ببيع لوحتك الأولى .

ثم اتجهت نحو الباب ، وغادرت الحجرة مع (أشرف) ، وأغلقا بابها فى رفق ..

وخفق قلب (وفاء) ..

إنها تحبه ..

لم يعد لديها شك فى هذا ..

إنها لم تكد تسمع اسمه حتى سرت الدماء فى عروقها ، وانتفض قلبها فرحًا ..

ولم تكد تراه حتى قاومت فى صعوبة ، رغبتها فى إلقاء نفسها بين ذراعيه ..

إنها تحبه ..

تحبه بكل وجدانها ..

ولكنه حب يائس ..

حبٌ يحدّه عمرها القصير ..

وقلبها المريض ..

ولكنها ستمنحه هذا الحب ، حتى آخر قطرة ..

ستهبه له حتى آخر نفس ..

وفى حماس ، جلست أمام مرآتها ، وراحت تصفِّف شعرها ..
لقد قرَّرت أن تبدو فى أجمل صورة ، وهى تنضمّ إليهم حول مائدة العشاء الليلة ..

وستفعل هذا من أجله ..

من أجل حبه ..

وعندما غادرت حجرتها ، بعد نصف الساعة ، كانت رائعة ..

لم تكن ترتدى ثوبًا فاخرًا ، أو حليًّا ثمينة ..

ولكنها كانت رائعة ..

ولقد بدا الإعجاب واضحًا فى عينى (أشرف) ، وفى صوته الحنون ، وهو يستقبلها قائلًا :

ــ (وفاء) .. إنك تبدين رائعة هذا المساء .

احمرَّ وجهها خجلًا وسعادة ، وغمغمت :

ــ الفضل لك .

ابتسم فى حنان ، وهو يقول :

ــ بل لجمالك الطبيعى ورقتك .

وقعت كلماته فى قلبها وقعًا حسنًا ، وانتقلت إلى شفتيها ، على هيئة ابتسامة جميلة رقيقة خجلى ، فغمغمت (أنجيل) فى حُبّ :

ــ يا للملاك الرقيق !

أما الأستاذ (عطا الله) ، فقد هتف مبتسمًا :

ــ يا إلٰهى !!.. هل جاءت الجنة بحورياتها إلينا ، بعد أن يئسَت من ذهابنا إليها ؟

ضحكت (وفاء) ، وهى تقول :

ــ الجنة لا تأتى لأحد يا أستاذ (عطا الله) .

ضحك قائلًا :

ــ ستنتظرنى طويلًا إذن .

اجتمع الأربعة حول مائدة العشاء البسيطة ، وحرصت (أنجيل) على أن تمنح (وفاء) مقعدًا مجاورًا لمقعد (أشرف) ، وراح الجميع يتناولون طعام العشاء ، وهم يتبادلون حديثًا هادئًا مرحًا ، يؤكِّد روح الود السائدة بينهم ، ثم راح الأستاذ (عطا الله) يروى بعض نوادر أولاده ، عندما كانوا صغارًا ، ويقارن بينها وبين تصرُّفات من رآهم من أحفاده ، فسألته (وفاء) :

ــ ألا تزور أولادك وأحفادك يا أستاذ (عطا الله) ؟

بدا الحزن على وجه الرجل ، وهزَّ رأسه نفيًا ، وهو يقول فى أسى :

ــ لا .. إننى لم أر أحدهم منذ عامين على الأقل .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ــ ولم يحاول أحدهم زيارتى كذلك ؟

سألته فى دهشه :

ــ أيعلمون أنك تقيم هنا ؟

ابتسم فى أسى ، قائلًا :

ــ لو أرادوا أو حاولوا رؤيتى لعلموا .

سألته :

ــ كيف ؟

ازدرد لعابه فى مرارة ، قبل أن يجيب :

ــ إننى أقبض معاشى شهريًا ، ولقد طلبت رسميًا تحويل الشيك إلى عنوان (البنسيون) ، ولو حاول أحد أبنائى البحث عنى ، فمن الطبيعى أن يلجأ إلى إدارة المعاشات أوّلًا ، ليتأكدَ من أننى على قيد الحياة ، وعندئذ سيعرف عنوانى .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف فى حزن شديد :

ــ ولكن أحدًا منهم لم يحاول .

وترقرق الدمع فى عينيه ، وهو يستطرد :

ــ لقد أصبحت لهم مجرَّد ماض .

هتفت (أنجيل) ، فى محاولة لتهدئة مشاعره :

ــ هم الخاسرون .. صدقنى .. إن من يتنازل عن أب حنون مثلك يستحق القتل والموت .

هتف الرجل فى جزع :

ــ لا .. لست أتمنى لهم ذلك .. فليتجاهلونى ما شاء لهم التجاهل .. المهم أن يكونوا فى خير حال .

تطلّعت إليه فى حنان ، مغمغمة :

ــ يالك من رجل حنون !

أطرق بوجهه مغمغمًا :

ــ إنها طبيعة أى أب .

ثم عاد يرفع عينيه ، مستطردًا :

ــ فالأبوّة شعور رائع .

مرَّة أخرى خُيِّل لـ (وفاء) أن العبارة قد أصابت وترًا حساسًا فى نفس (أشرف) ، فقد شَحُب وجهه ، وارتجفت شفتاه ، وراح يتطلّع إلى أصابعه فى ألم ومرارة ، حتى لقد خُيِّل إليها أنه يكرهها ..

يكره أصابعه ..

وكان ذلك مثيرًا للدهشة ..

ولكن (أنجيل) كانت تعلم حقيقة (أشرف) حتمًا ، فلم يكد الأستاذ (عطا الله) ينطق بعبارته ، حتى أدارت عينيها إلى (أشرف) فى قلق ، وربّتت على كفه مواسية ..

وراح عقل (وفاء) يسعى لاستنتاج الأمر ..

هل فقد (أشرف) ابنًا ؟!..

أهذا سرّ حزنه ؟!..

ولكن لماذا يخفى شخصيته وعمله إذن ؟..

أهو هارب من شيء ما ؟

ولكن كيف ؟..

لقد أخبرتها (أنجيل) أنها تبلغ الشرطة حتمًا عن كل نزيل فى (البنسيون) ..

إذن فالشرطة لا تبحث عنه ..

هناك سر آخر يخفيه ..

سرٌ غامض ..

ظلَّ الفُضول يملأ جسدها لمعرفة السّر ، حتى أنهكها التفكير ، فنهضت مغمغمة :

ـ معذرة .. سأذهب إلى فراشى ، فلقد بذلت جهدًا كبيرًا اليوم ، وأحتاج إلى بعض النوم .

غمغم (أشرف) فى حنان :

ـ إنك تحتاجين إليه بالفعل .

ألقت تحية المساء على الجميع ، واتجهت إلى حجرتها ، وارتدت منامتها ، ثم استلقت فى فراشها ..

ولكنها لم تنم ..

لقد سيطر عليها أرق شديد ، وأصرَّ عقلها على البحث عن سرّ (أشرف) الغامض ، حتى سمعت صوته يأتى إلى حجرتها ، عَبْرَ شُرفة مشتركة بينهما ..

ولم تميِّز كلماته ، فنهضت من فراشها ، واتجهت إلى الشرفة ..

وهناك ، فى الشرفة ، أدركت أنه يُعانى كابوسًا فى نومه ، وأنه يتحدَّث إلى نفسه ..

وارتجف جسدها وتصلَّب ، عندما سمعته يهتف فى نومه :

ـ أنا المجرم .. أنا قتلتها .. قتلتها .

وعندئذ أدركت السِّر الذى يخفيه (أشرف) ..

إنه جريمة ..

جريمة قتل ..

* * *



٨ ـ السِّرّ ..

لم يغمض لها جفن طِيلَة الليل ..
قضت ليلتها كلها ساهرة ، تفكّر فى العبارة ..
أهى مجرَّد كابوس ؟..
أم أنها استعادة لحدث ماض ؟..
من تلك التى قتلها ؟..
أهى حبيبة سابقة ؟..
أم زوجة ؟..
راح عقلها يفكّر وينَسّق الأمور والحوادث ، ويربط بعضها ببعض فى اهتمام بالغ ، حتى توصَّلت إلى استنتاج ، بدا لها منطقيًّا ..
لقد قتل زوجته ..
قتلها دون أن يعلم أحد أنه قد فعل .
ولقد قتلها لأنها رفضت الإنجاب ..
نعم ..
هذا هو الاستنتاج المنطقى ..

ولكن كيف يرتكب شخصٌ جريمة ، دون أن تبحث عنه الشرطة ؟..
هذا ممكن ، لو أنه يحمل بطاقة شخصية زائفة ..
أو ......
صمتت أفكارها لحظة ، قبل أن تتتابع فى قلق .
أو أنه قد أنهى فترة عقوبته بالفعل ..
ولكن كيف ؟..
إنه فى الأربعين من عمره ، ومن المستحيل أن يقضى عقوبة قتل عمد ..
إلا إذا اتخذ القتل صورة أخرى ..
صورة قتل خطإ مثلًا ..
يا له من استنتاج !!..
إنها لا تتصوَّر (أشرف) قاتلًا أبدا ..
لا يمكنها أن تتخيَّل كل دمائه الخلق هذه على وجه قاتل ..
هذا مستحيل !!..
مستحيل تمامًا ..
ولكنه حتمًا قتل إنسانة ما ..
لقد كان يهتف بذلك وهو يبكى ..
وكان ينشد العقاب ..

ولماذا يفعل ؟..
ألأنه لم يحصل على عقوبته بالفعل ؟..
أم لماذا ؟!..
انبلج الصبح دون أن تصل إلى جواب شافٍ ، فغادرت حجرتها ، وهتفت (أنجيل) فى دهشة ، وهى تراها تستيقظ مبكِّرة هكذا :
ــ صباح الخير يا (وفاء) ، ما الذى أيقظك مبكِّرةً هكذا ؟!
غمغمت (وفاء) :
ــ أردت أن أعاونك مرَّة فى إعداد طعام الإفطار .
ابتسمت (أنجيل) فى حنان ، وهى تقول :
ــ كم يرُوق لى هذا .
ثم أضافت فى مرح :
ــ ولكنه ليس السبب الحقيقى ، فعيناك المنتفختان تؤكدان أنك لم تذوق طعم النوم أمس .
تنهَّدت ، وهى تغمغم فى استسلام :
ــ هذا صحيحٌ .
سألتها (أنجيل) فى إشفاق :
ــ أكنت تفكِّرين فى (أشرف) ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وقد وجدت أنه لا فائدة من الإنكار ، فربَّتت (أنجيل) على كتفها فى عطف ، وهى تقول :
ــ كم يدهشنى أمركما يا بنيَّتى !!.. أنت تحبِّينه وهو يحبُّك ، فلماذا لا يصارح كل منكما الآخر ؟.. لِمَ تضيعان عمريكما هباءً .
تمتمت فى مرارة :
ــ لدىَّ أسبابى .
سألتها (أنجيل) فى اهتمام :
ــ أهو فارق السِّن ؟
تمتمت فى دهشة :
ــ أى فارق سن ؟
غمغمت (أنجيل) :
ــ أُغنِى أنه ربما تجدين فارق السِّن بينكما أكبر من اللازم ؛ لأنه فى الأربعين وأنت فى الحادية والعشرين .
هزَّت رأسها نفيًا ، وقالت :
ــ لا يا مدام (أنجيل) .. ليس هذا هو السبب .
سألتها فى حَيْرة :
ــ ما السبب إذن ؟

ترددت لحظة ، ثم أجابت فى حزم :
ـ لن يمكننى كشفه .
ران عليهما الصمت لحظات ، ثم سألتها (أنجيل) فى حنان :
ـ أهناك شخص آخر ؟
هتفت فى حزم :
ـ لا .. ولم يكن هناك أى شخص قطُّ .. إن (أشرف) هو .....
بترت عبارتها بغتة ، وقد منعها الحياء من إتمامها ، فأكملتها (أنجيل) فى خفوت :
ـ أوّل حُبّ فى حياتك .. أليس كذلك ؟
خفضت عينيها فى مرارة ، وهى تقول :
ـ وآخر حُبّ .
سألتها فى دهشة :
ـ لِمَ لا تستسلمين لهذا الحب إذن ؟.. لقد تصوَّرت أنك تقاومينه بسبب تجربة فاشلة مررت بها ، ولكنك تؤكدين العكس ، حتى أننى لم أعد أفهم شيئًا .
وجدتها (وفاء) فرصة مثالية لتسألها :
ـ وهل يمكننى أن أحب شخصًا ، أجهل عنه كل شىء ؟

كانت تتصوَّر أن (أنجيل) ستندفع ، لتروى لها ما تعرفه عن (أشرف) ، وتزيح الستار عن غموض حياته ، إلا أن (أنجيل) تراجعت فى حدَّة ، وراحت تتطلَّع إليها طويلًا فى صمت ، قبل أن تقول فى خفوت :
ـ ولِمَ لا تسألينه مباشرةً ؟
قالت (وفاء) فى حِدَّة :
ـ ولِمَ لا تخبريننى أنت ؟
أشاحت (أنجيل) بوجهها ، مغمغمة فى حزم :
ـ ليت هذا من حقِّى .
قالت (وفاء) فى سُخط :
ـ وليس من حقِّى أن أسأله أيضًا .
أجابتها فى حزم :
ـ لو أنه يحبك ، فسيمنحك هذا الحق .
سألتها محتدَّة :
ـ وماذا لو لم يكن كذلك ؟
أجابتها فى صرامة :
ـ ستكون فرصة مثالية لاختبار ذلك .
رَانَ عليهما الصمت لحظات طوالًا ، ثم سألتها (وفاء) فى حزم :

ـ هل يمكنك أن تجيبى عن سؤال واحد إذن ، يتعلَّق عليه الأمر كله ؟

تردَّدت (أنجيل) لحظة ، ثم قالت :

ـ هذا يتوقَّف على نوع السؤال .

سألتها فى اهتمام ولهفة :

ـ هل ارتكب (أشرف) يومًا جريمة قتل ؟

التفتت إليها (أنجيل) ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تهتف :

ـ قتل ؟!

أمسكت (وفاء) كتفيها ، وهى تقول فى توتُّر واضح :

ـ أعنى هل قتل يومًا فتاة ؟.. هل فعلها ؟

ترقرق الدمع فى عينى (أنجيل) ، وأطرقت بوجهها مغمغمة :

ـ إنه لم يكن يقصد ذلك .

ارتجف جسد (وفاء) فى قوة ..

إذن فهى حقيقة ..

لقد قتل (أشرف) يومًا فتاة ..

سواء أقصد ذلك أم لا ..

لقد فعلها ..

وهذا ما يعذِّبه ..

هذا ما يؤرق حياته ..

ولكن من هذه الفتاة ؟..

من ضحيَّته ؟..

لماذا قتلها ؟..

كيف ؟!..

ومتى ؟!..

خُيِّل إليها لحظتها أنها لم تحلّ اللُّغز ..

لقد أضافت إليه ألغازًا ..

ألغازًا أكثر خطورة ..

* * *

٩ ــ الحَيْرَة ..

غادرت (وفاء) البنسيون ، قبل استيقاظ (أشرف) ..
لم تكن لتحتمل مواجهته ، قبل أن تحسم أمر نفسها ..
لقد ارتكب جريمة قتل ..
لم يَعُد لديها شكٌّ فى هذا ..
صحيح أنها تجهل الدوافع والملابسات والظروف ..
ولكنه فعلها ..
لقد اعترفت (أنجيل) بذلك ..
ولكن هذا لايحسم الأمر تمامًا ..
لقد التهب فُضُولها أكثر ..
إنها ما تزال تجهل من هى هذه الفتاة ..
أهِىَ زوجة أم حبيبة ؟..
لماذا قتلها ؟..
وما الذى تعنيه (أنجيل) بأنه لم يكن يقصد ذلك ؟..
هل تشاجرا مثلًا ، فدفعها ، ولقيت مصرعها ؟..
هل صدمها بسيارة ؟..

ثم لماذا يخفى أمر نفسه بعد أن فعل ، ما دام ليس هاربًا من الشرطة ؟..
لماذا ؟..
عشرات الأسئلة بلا إجابات ..
عشرات المسبِّبات للحَيْرَة ..
والمثيرات للشكوك ..
ثم تبقى نقطة بالغة الأهمية ..
هل يؤثِّر ذلك فى حبِّها له ؟..
هل يمكنها أن تحب قاتلًا ؟..
ولِمَ لا ؟..
إن حبها له حُبُّ يائس ، فما الفارق فى أن يكون قاتلًا أم لا ؟..
إنها ستترك له الدنيا كلها قريبًا ، دون أن يصنع ذلك فارقًا ..
المهم أنها تحبه ..
تحبه وكفى .
حسمت تلك الفكرة تردُّدها ، فاتجهت إلى أحد متاجر الفنون ، وابتاعت لوحة رسم جديدة ، وبعض الألوان الزيتية ، وعادت بها إلى (البنسيون) لتبدأ لوحة جديدة ..

وكعادتها صعدت فى درجات السُلَّم فى بطء ، ولم تكد تبلغ باب (البنسيون) ، حتى توقَّفت تلتقط أنفاسها ..

وفجأة ، تناهى إلى مسامعها صوت (أنجيل) ، وهى تقول :

ــ لست أدرى كيف عرفَتْ يا أستاذ (أشرف) ؟.. إننى لم أخبرها بأى شىء .. أُقسم لك ، ولكن يبدو أن ذلك الكابوس ما زال يراودك ، وأنها قد سمعت عباراتك ، فأنت تعلم أن الشرفة المشتركة بينكما تجعل انتقال الصوت أمرًا هيِّنًا .

حبست (وفاء) أنفاسها اللاهثة ، وهى تلتصق بالحائط المجاور للباب ..

كانت فرصة نادرة لتعرف المزيد عن (أشرف) ..

صحيح أنها تدرك أن التصنُّت على الآخرين ينافى قواعد اللياقة والتهذيب ، ولكنها لم تستطع مقاومة فضُولها ..

خاصة عندما أجاب (أشرف) فى قلق :

ــ المهم ألَّا تكون قد عرفت التفاصيل .

أجابته (أنجيل) مؤكِّدة :

ــ بالتأكيد ، وإلا فما بذلت أقصى جهدها ، فى محاولة لمعرفة التفاصيل منِّى .

تنهَّد فى صوت مرتفع ، وهو يقول :

ــ كم أشفق عليها .

رَانَ الصمت لحظة ، ثم قالت (أنجيل) فى تردُّد :

ــ إنها تحبك .

أجابها (أشرف) فى حنان :

ــ أنا أيضًا أحبها .. أحبها بعد أن تصوَّرت أننى لن أحب أبدًا ، وأن قلبى قد صار مُتخمًا بالأحزان ، فلم تعُد فيه خليَّة قادرة على النبض .

هتفت (أنجيل) :

ــ يا لكما من أحمقين .. لِمَ لا تتصارحان بحبكما ، ما دمتما عاشقين هكذا ؟

زفر مرة أخرى ، وقال :

ــ لأن حُبها لى ليس حقيقيًا .

خفَق قلبها فى عنف ، وهى تستمع إلى عبارته الأخيرة ..

كيف يقول هذا ؟..

كيف يشكّ فى حبِّها له ؟..

ألا يعلم كم تهواه ؟..

ألا يدرك كم تذُوب فى عشقه ؟..

سمعته يضيف فى مرارة :

ــ لقد افتقدت (وفاء) حنان الأب منذ طفولتها ، بعد أن مات قبل ولادتها ، كما قصَّت علينا ، ولقد وجدت فى شخصى بديلًا عن هذا الأب ، مع فارق السن بيننا ، ومع الشَّيب فى فَوْدَىّ .. وربَّما لاتدرك هى نفسها هذا ، ولكنها الحقيقة .

هتفت فى أعماقها ..

لا يا (أشرف) ..

أنت مخطئٌ فى استنتاجك هذا ..

إننى ناضجة بما يكفى لأعرف الفارق ..

الفارق بين الحب الأبوى ، وحُبّ امرأة لرجل ..

صحيح أننى أفتقد الحب منذ طفولتى ، ولكن هذا ليس مبرِّرًا لاستنتاجك ..

صدِّقنى ، إننى أحبك كرجل ..

صحيح أنك تملك الكثير من حنان الأب ، ولكن كل النساء يحتجن إلى هذا ..

كلهن يبحثن عن مزيج من الأب والزوج ..

يبحثن عن زوج يحتضن مشاعرهن فى رفق وحنان ، ويمنحهن كل حنانه وحبه ..

كلهن يعشقن ذلك ..

وأنا أحبك ..

أحبك يا (أشرف) ..

حتى ولو كنت قاتلًا ..

حتى ولو كنت (قابيل) نفسه ..

إننى أُحبك ..

كم تمنَّت لحظتها لو هتفت بتلك الكلمات عن لسانها ..

كم تمنَّت لو صرخت به له ..

ولكن قلبها المريض رفض ذلك ..

رفض أن تمنحه حبًّا تعجز عن الوفاء به ..

رفض أن تهب له أملًا زائلًا ..

لعله من الأفضل أنه يخشى حُبها ..

ربَّما كان ذلك لصالحهما معًا ..

من يدرى ماذا سيحدث له ، لو أنه وقع فى حُبها ، ثم رحلت هى عن الدنيا ؟..

سيضاعف هذا من أحزانه حتمًا ..

وربما يقتله ..

لا ..

لن تحتمل أن تكون السبب فى هذا أو ذاك ..

يكفيها أنه يحبها ..

يكفيها أن تعلم ذلك ..
وستمنحه الحب والحنان ..
ستمنحه إيَّاهما دون أن تعترف له بحبها أيضًا ..
فليبقَ حبهما فى قلبيهما ..
وليعش بعد رحيلها ..
وفى هدوء دقَّت الباب ، وانتظرت حتى فتح هو ، وابتسم فى وجهها بحنانه المعهود ، وهو يقول :
ـــ مرحبًا .. إننى أعنى .. أننا ننتظرك ..
كم بدا لها لحظتها وسيمًا حانيًا ..
كم تمنَّت أن تلقى نفسها بين ذراعيه ..
كم أحبَّته ..
وفى ابتسامة مماثلة ، أجابته :
ـــ كنت أحتاج إلى لوحة جديدة .
افسح لها فى الطريق ، وهو يقول :
ـــ سننعم إذن بلوحة فنية أخرى .
ابتسمت قائلة :
ـــ بإذن الله ..
عاونها فى مودَّة على نصب لوحتها الخالية الجديدة فى الشرفة ، وهو يسألها :

ـــ أهى لوحة جديدة للمسجد ؟
هزَّت رأسها نفيًا ، وأجابت :
ـــ لا .. لقد وعيت النصيحة ، سأرسم السوق المحيط بالمسجد .. هذا هو الجديد .. أليس كذلك ؟
ابتسم قائلًا :
ـــ بالطبع .. المحلِّية هى دومًا الطريق إلى العالمية .
ثم تراجع ليجلس على مقعده المفضَّل ، المواجه للشرفة ، وهو يتأمَّلها فى اهتمام ، وهى تعدّ ألوانها ، وسألته فى حنان :
ـــ هل نمت جيِّدًا ليلة أمس ؟
أجابها فى هدوء :
ـــ إلى حدّ ما .
توقَّفت لحظات عن إعداد ألوانها ، ثم رفعت عينيها إليه ، وقالت فى حماس :
ـــ ما رأيك ؟.. سأغيِّر خطَّتى تمامًا .
سألها فى حنان :
ـــ كيف ؟
هتفت :
ـــ سأرسمك أنت .
ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يهتف :

ــ أنا ؟!
صاحت فى حماس :
ــ نعم .. أنت .. سأرسم وجهك ، بكل ما يحيط به من غموض .
ارتفع صوت مرح يقول :
ــ فكرة رائعة .
التفتا معًا إلى مصدر الصوت ، ورأيا الأستاذ (عطا الله) يقترب مستطردًا :
ــ ستكون لوحة نادرة ، وأنا أقترح لها مقدمًا اسم (أسرار) .
ابتسم (أشرف) ابتسامة باهتة ، وهو يغمغم :
ــ لن يشتريها أحد .
هتفت (وفاء) :
ــ سأخاطر .
تردَّد (أشرف) لحظات ، ثم لم يلبث أن غمغم فى استسلام :
ــ لا بأس ، ما دام هذا يرُوق لك .
بعثت الفكرة كل الحماس فى عروقها ..
سترسم وجهه ..

ولن تبيع هذه اللوحة ..
ستحتفظ بها فى حجرتها ..
ستضمّها إلى صدرها ..
وتقبِّلها ..
ستكون لها بمثابة تعويض عنه ..
عن حبِّه ..
عن قُربه ..
وعندما ترحل ، ستتركها له ..
ستُوصى بها إليه ، حتى يذكرها دومًا ..
التقطت فرشاة رسم رفيعة ، وراحت تتطلَّع إلى وجهه ، وهى تغمسها فى لون فاتح ، ثم ترفعها ، وتحاول أن تنقل بها خطوط وجهه إلى اللوحة ..
ولكنها لم تستطع ..
كانت أصابعها ترتجف على نحو ملحوظ ..
حاولت منع ارتجافتها ، ولكنها عجزت ..
وعندما أدارت عينيها إلى (أشرف) ، كان يعقد حاجبيه ، ويتطلَّع إلى أصابعها المرتجفة فى انتباه شديد ..

وفجأة ، رفع عينيه إلى وجهها ، وارتجف جسدها كله ،
عندما سألها فى حزم :

ــ (وفاء) .. هل تُعَانين عِلَّة قلبية ؟

وشَحُب وجهها فى شدة ..

لقد كشف سرّها ..

* * *



١٠ ــ المصادفة ..

وقع السؤال على رأسها وقْع الصاعقة ..

كيف عرف ؟..

كيف أدرك ما تعانيه ؟..

إنها تشعر بأنفاسها منتظمة عادية ..

صحيح أن قلبها يخفق فى شدة ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن ألقى سؤاله ، أما قبلها ، فقد كان هادئًا مستقرًا ..

وحاولت أن ترسم على شفتيها ابتسامة مضطربة ، وهى تغمغم فى شُحُوب :

ــ ما الذى جعلك تتصوَّر هذا ؟

أجابها فى اهتمام مَشُوب بالقلق :

ــ ارتجافة أصابعك يا (وفاء) .. إنه نوع من الشلل الرعَّاش ، يرافق بعض أمراض القلب ، وبخاصة تلك المرتبطة بالحمى الروماتيزمية .

وضعت فرشاة الرسم جانبًا ، وهى تغمغم فى شُحُوب :

ـــ يبدو أنك قد أسأت تفسير الأمر .. إن أصابعى ترتجف من شدة الإرهاق فحسب ، لم يكن ينبغى أن أبدأ الرسم على الفور .

قال فى قلق :

ـــ ولكن هذه الارتجافة تختلف عن .....

قاطعه (عطا الله) :

ـــ كفَى يا رجل .. ألم تَرَ كيف شَحُب وجهها ؟.. لقد أثرت ذُعرها بلا مبرِّر .. من أدراك أنت بأعراض العلل القلبية ؟

تمتم (أشرف) :

ـــ لقد قرأت الكثير عنها ، و .....

قاطعه فى مرح :

ـــ الثقافة تصلح فى كل الوجوه ، إلا فى الطب يا رجل .

ثم التفت إلى (وفاء) ، مستطردًا :

ـــ وهل يصدِّق أى مخلوق أن هذا الملاك يصاب بعلَّة قلبية ؟..

ما الذى ينبغى أن يصاب به عجوز مثلى إذن ؟

أجبرت (وفاء) نفسها على إطلاق ضحكة قصيرة ، قبل أن تقول :

ـــ أنت على حقٍّ يا أستاذ (عطا الله) .

هتف الرجل فى مرح :

ـــ أنا دومًا على حقّ .

ثم أضاف فى حماس :

هيَّا .. اذهبى واحصلى على قَدْرٍ من النوم ، وستتوقَّف هذه الارتجافة تمامًا .

نهضت ، وأسرعت إلى حجرتها فرارًا من الموقف ، وهى تغمغم :

ـــ سأفعل .

دلفت إلى حجرتها ، وأغلقت بابها خلفها فى إحكام ، وكأنها تخشى أن تتسلَّل شكوك (أشرف) خلفها ، وألقت جسدها فوق فراشها ، وقلبها يخفق فى عنف ..

كيف كشف سرَّها ؟..

كيف ؟..

فلتحمد الله على أن الأستاذ (عطا الله) قد تدخَّل ، وإلا فما أمكنها أن تخدعه ..

فلتحمد الله (سبحانه وتعالى) ..

راح جسدها ينتفضُ فى انفعال ، حتى لقد خشيت على قلبها المريض ، فغادرت فراشها ، مغمغمة :

ـــ لن أحتمل البقاء .. لن أحتمل .

وغادرت حجرتها ، وتسللت إلى المطبخ ، وهمست لـ (أنجيل) :

ـــ سأذهب لقضاء بعض احتياجاتى .

تأملتها (أنجيل) فى حيرة وإشفاق ، وغمغمت :

ـــ اذهبى يا بنيتى .. اذهبى وقتما يحلو لك .

تسللت مغادرة المطبخ ، ولكنها لم تكد تخرج إلى البهو ، حتى ارتفعت عينا (أشرف) إليها ، وقال فى هدوء :

ـــ (وفاء) .. هل يمكننى أن أتحدث إليك قليلًا ؟

فى ظروف أخرى لم تكن لترفض مطلبه هذا أبدًا ..

خاصة مع ذلك الصوت الحنون ، وتلك النبرة المُفْعَمة بالرجاء فى صوته ..

ولكنها لم تستطع تلبيه ندائه هذه المرّة ..

كانت تخشى أن تواجهه ..

تخشى أن يقرأ حقيقة سرها فى أعماقها ..

وفى عينيها ..

كانت تخشى أن تفقده ..

وفى توتُّر ، غمغمت :

ـــ أيمكنك تأجيل ذلك لساعة واحدة ؟

سألها فى قلق :

ـــ لماذا ؟

أجابته محاولة إخفاء انفعالاتها :

ـــ أمامى أمر عاجل فى الخارج ، سأنهيه بعد ساعة واحدة ، وأعود إلى هنا بإذن الله .

صمت لحظات ، وهو يتطلّع إليها ، كما لو كان لا يصدّق حرفًا واحدًا مما تقول ، ثم لم يلبث أن غمغم :

ـــ لا بأس .. سأنتظر .

أسرعت تغادر (البنسيون) ، والمبنى كله ، ولم تكد تبتعد عنه بضع خطوات ، حتى سمعت صوتًا يهتف بها :

ـــ آنسة (وفاء) .. يا لها من مصادفة !!

التفتت إلى مصدر الصوت ، وهتفت بدورها :

ـــ دكتور (هشام) ، يا لها من مصادفة سعيدة !!

صافحها الدكتور (هشام) فى حرارة ، وهو يقول :

ـــ أين أنت ؟.. إننى أبحث عنك منذ شهر كامل .

هتفت فى دهشة :

ـــ تبحث عنّى ؟!.. لماذا ؟

ابتسم فى حرج ، وهو يقول :

ـــ أَمِنَ الضرورى أن يكون هناك سبب ؟

تمتمت فى اقتضاب .

— لا ..

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

— لقد سألت عنك فى منطقة (السيِّدة زينب) ، وأرهقنى الأمر طويلًا ، حتى وجدت من يعرفك ، ولكنهم أخبرونى هناك أنك قد تشاجرت مع صاحب المنزل ، وأنك قد أبلغت عنه قسم الشُرطة ، فذهبت إلى هناك ، وأخبرنى النقيب (خالد) بما حدث ، وقال إنَّه لايعرف عنوانك .

سألته فى دهشة :

— ولماذا بذلت كل هذا ؟

احمرَّت وجنتاه قليلًا ، وهو يغمغم :

— أردت الاطمئنان عليك .

وصمت لحظة ، ثم أردف :

— لقد افترقنا فى آخر مرَّة ، وكان قلبك مريضًا .

تمتمت فى أسًى :

— وما زال كذلك .

سألها فى قلق :

— أما زلت على عنادك بشأن العلاج ؟

أجابته فى ضيق :

— إلى حدٍّ ما .

ثم أضافت فى سرعة :

— أليس من الأفضل أن نتحدَّث فى أمر آخر ؟

قال مُشفقًا :

— ليس عندما يظلّ قلبك مريضًا .

قالت فى حدَّة :

— ولكن هذا لايُقلقنى .

أجابها :

— ولكنه يقلقنى أنا .

تطلَّعت إليه فى دهشة ، وغمغمت :

— لماذا ؟

ارتبك وهو يقول :

— ربما لأننى متخصِّص فى هذا المجال ، أو .....

بتر عبارته لحظة ، ثم استطرد :

— أو لأن أمرك يهمُّنى .

أدركت مايعنيه ، فتخضَّب وجهها بحُمرة الخجل ، وغمغمت :

— شكرًا لك .

رَانَ عليهما الصمت لحظات ، ثم سألها هو :

— ولكن أين تقيمين ؟

رفعت يدها ووجهها إلى شرفة (البنسيون) ، وهى تقول :

ـ هنا .
وتسمَّرت يدها فى دهشة ..
لقد كان (أشرف) يقف فى الشُرفة ، ويتطلَّع إليها وإلى (هشام) فى اهتمام بالغ ..
وعندما أدار (هشام) وجهه إلى الشرفة ، تراجع (أشرف) فى سرعة ، وكأنما يخشى أن يراه (هشام) ..
ولكن (هشام) رآه ..
رآه ، وهتف فى دهشة :
ـ عجبًا !!.. هذا الرجل ..
سألته (وفاء) فى قلق :
ـ ماذا به ؟
عقد حاجبيه ، وهو يقول :
ـ إننى أذكر هذا الوجه .. إننى أعرفه .
خفق قلبها فى قوة ..
إنه يعرفه .. يعرفه ..
ودون أن تدرى ، وجدت نفسها تتشبَّث بذراعيه ، وتهتف فى لهفة :
من هو يا (هشام) ؟.. من هو ؟
وانتظرت الجواب فى لهفة شديدة ..
★ ★ ★

١١ ـ المجهـول ..

كانت تنتظر جوابًا كافيًا شافيًا ..
تنتظر أن يلقى إليها (هشام) بالسِّرِّ كله ..
أن يُشبع فُضولها ويرويه ..
ولكن هذا لم يحدث ..
لقد عقد (هشام) حاجبيه فى ضيق ، وسألها :
ـ هل يهمّك أمره إلى هذا الحدّ ؟
هتفت فى عصبيَّة :
ـ أرجوك يا دكتور (هشام) .. أريد أن أعرف
صمت لحظات ، وهو يتطلَّع إليها فى غَيْرَة واضحة ، قبل أن يقول فى برود :
ـ لست أذكر .
عقدت حاجبيها ، وهى تهتف :
ـ دكتور (هشام) .. لقد قلت ..
قاطعها فى صرامة :

ـــ قلت إننى أذكر هذا الوجه ، وأننى أعرف صاحبه ، ولكننى لست أذكر متى أو أين رأيته .

سألته فى لهفة ، وبلهجة تفيض رجاءً :

ـــ حاول أن تتذكَّر يا دكتور .. حاول .

هتف فى مرارة :

ـــ إذن فأمره يهمَّك كثيرًا .

غمغمت فى توسُّل :

ـــ أرجوك .

تطلَّع إليها فى مرارة ، وهو يغمغم :

ـــ أنت تحبِّينه .. أليس كذلك ؟

تصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها ، وأطرقت برأسها فى صمت ، فزفر فى قوة ، وهو يقول :

ـــ لقد فهمت .

طال صمتها بضع دقائق ، وكأن كُلًّا منهما يخشى معاودة الحديث ، حتى ازدرد هو لعابه ، وقال وقد استعاد توازنه النفسى .

ـــ هل يخفى عنك أمرًا ما ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، فابتسم فى إشفاق ، وقال :

ـــ حسنًا يا آنسة (وفاء) .. سأبذل أقصى جهدى لتذكُّر صاحب هذا الوجه ، وسأبلغك فور توصُّلى إلى ذلك .

غمغمت :

ـــ أرجوك .

ابتسم فى أسف ، وغمغم :

ـــ أعِدك بذلك .

رَانَ عليهما الصمت لحظة أخرى ، ثم سألها مفتعلًا المرح :

ـــ ألديكم هاتف هنا ؟

أجابته فى خُفوت :

ـــ نعم .. سأمنحك رقمه .

أخرج مفكِّرة صغيرة من جيبه ، وهو يقول :

ـــ حسنًا .. إننى أنتظر .

أملته الرقم ، فدوَّنه فى مفكِّرته ، وابتسم ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ـــ سأتصل بك فى القريب العاجل بإذن الله .

تمتمت فى حياء :

ـــ سأنتظر .

شدَّ على يدها فى رفق ، وهو يقول :

ـــ عمومًا إننى أحسده .

تخضّب وجهها بحُمْرة الخجل ، وهى تقول :
ـــ من هو ؟
كانت تعلم الجواب مسبقًا ؛ لذا فقد شعرت بخجل شديد ، عندما مال نحوها ، وهمس بابتسامته الشاحبة :
ـــ ذلك المجهول .
عاد يصافحها ، وأسرع يبتعد عنها ، وتبعته هى ببصرها لحظات ، ثم عادت ترفع وجهها إلى شرفة (البنسيون) ..
لماذا اختفى (أشرف) بهذه السرعة ، عندما رفع (هشام) عينيه إلى الشرفة ؟..
هل يعرف أن (هشام) سيتذكّره ؟..
هل يخشى أن يحدث هذا ؟..
ما الذى يخفيه هذا الرجل ؟..
أى مجهول يغُوص فيه ؟..
أى سرّ هائل يخفيه ؟..
أشاء قدرها أن تحبّ رجلًا غامضًا مجهولًا ؟..
أشاء أن يحيط كل ما حولها ، ومن حولها ، بالحَيْرة والغموض ؟..
حتى الرجل الذى أحبّت ..
ودون وعى ، عادت أدراجها إلى (البنسيون) ..

ودفعتها غريزتها إلى الصعود فى بطء على الرغم من شرُودها ..
وتوقّفت أمام الباب لحظات ، تلتقط أنفاسها ، ثم دقّته ..
وفى هذه المرّة فتح الأستاذ (عطا الله) الباب ، وابتسم لها ابتسامة عريضة ، وهو يقول :
ـــ مرحبًا ياملاكنا .
ابتسمت ابتسامة باهتة ، وهى تقول :
ـــ مرحبًا يا أستاذ (عطا الله) .
ودلفت إلى المكان ، وهى تسأله :
ـــ أين الأستاذ (أشرف) ؟
غمغم :
ـــ لقد ذهب إلى حجرته .
ثم أضاف بصوت مرتفع :
ـــ وهذا يُدهشنى فى الواقع ، فهى أوّل مرّة يأوِى فيها إلى فراشه فى الصباح .
تمتمت فى ضيق :
ـــ ربّما يشعر ببعض التعب .
هزّ كتفيه ، مغمغمًا :
ـــ ربّما .

ترددت لحظة ، ثم غمغمت فى حرج :

ـ أتظنه ما يزال مستيقظًا ؟

ابتسم فى خبث ، وقال وقد أدرك مغزى السؤال :

ـ يمكننا أن نختبر ذلك .

ثم جذبها من يدها فى رفق إلى حجرة (أشرف) ، ودقّ بابها ، قائلًا فى مرح :

ـ أستاذ (أشرف) .. هل استسلمت للنوم ؟

أتاه صوت (أشرف) من الداخل ، يقول :

ـ لا يا أستاذ (عطا الله) ، تفضّل .

ابتسم الأستاذ (عطا الله) ، وقال مرحبًا :

ـ ارتدِ أفخر ثيابك أوّلًا ، فملاكنا الحارس سيشرّف حجرتك بالزيارة .

لم تمضِ لحظة واحدة ، بعد هذه العبارة ، حتى فتح (أشرف) الباب ، وهو يقول فى لهفة :

ـ (وفاء) ؟!

تضرّج وجهها بحُمرة الخجل كعادتها ، وهى تغمغم :

ـ هل أطلقتما علىّ اسم (الملاك الحارس) ؟

ابتسم فى حنان ، قائلًا :

ـ بل أطلقه عليك القدر .

ثم أفسح لها الطريق ، مستطردًا :

ـ تفضّلى .

دلفت إلى حجرته ، مع الأستاذ (عطا الله) ، وأدركت على الفور كم هو شديد التنظيم والعناية ، فقد كانت الحجرة مرتّبة ونظيفة ، ولقد قدّم لها المقعد الوحيد فيها ، مغمغمًا فى حرج :

ـ معذرة .. لا يوجد غيره .

جلست فى رقّة ، وهى تقول :

ـ شكرًا لك .

رَانَ الصمت على الحجرة لحظات ، ثم قالت هى :

ـ لقد التقيت بصديق قديم .

ابتسم مغمغمًا :

ـ لست تدينين لى بأى تبريرات .

رفعت عينيها إليه ، وهمست :

ـ بل أدين بها .. لك وحدك .

ابتسم الأستاذ (عطا الله) فى حبٍّ ، وخُيّل إليه أن دموعه ستخدع جفنيه ، وتنحدر من بينهما على وجنتيه ، وهو يراهما أمامه كعصفورين عاشقين ، فهتف فى مرح :

ـ أين المشروبات ؟.. سأطلب من مدام (أنجيل) أن تعدّ لنا شيئًا .

واندفع إلى خارج الحجرة ، وكأنما يمنحهما فرصة الحديث وحدهما ، فرَان عليهما الصمت لحظات ، ثم غمغمت هي :

ـ الدكتور (هشام) صديق قديم ، ولقد التقيت به مصادفة، و .....

قاطعها فى هدوء :

ـ أعلم ذلك .

كادت تسأله ، لماذا خشى أن يراه (هشام) ؟ ولكن الموقف بدا لها غير ملائم لذلك ، فغمغمت :

ـ لقد أخبرتنى أنك تريد التحدُّث إلىَّ .

تطلَّع إلى عينيها طويلًا فى صمت ، ثم أمسك كتفيها فى قوة ..

وارتجفت هى .

خُيِّل إليها أن كفَّيه مُلتهبتان، تبعثان الدفء فى جسدها كله ..

وعندما تحدَّث خفق لحديثه قلبها ، وهو يقول :

ـ (وفاء) .. إننى .....

لم يتم عبارته ، فغمغمت هى فى مزيج من اللهفة والحياء :

ـ أنت ماذا ؟..

بدا وكأنه يقاوم العبارة فى حلقه ، ثم أبعد كفَّيه عن كتفيها فى هدوء ، وأشاح بعينيه عن عينيها ، مغمغمًا :

ـ لا شىء .

كم تمنَّت لحظتها لو أنه نطق بما تحلُم به ..

لو أنه أخبرها بأنه يحبها ..

كم تمنَّت لو أنه قد فعل ..

ولكنه لم يفعل ..

كان هناك شىء ما يمنعه من أن يفعل ..

وهبَّ واقفًا بغتة ، وقال وكأنما يحاول الفرار من الموقف :

ـ ما رأيك أن ننضمَّ للأستاذ (عطا الله) ومدام (أنجيل) ؟

نهضت تغمغم فى استسلام :

ـ كما تأمر .

ابتسم لها فى حنان ، وغمغم :

ـ هيَّا بنا .

غادرا الحجرة معًا ، إلى حيث تجلس مدام (أنجيل) مع (عطا الله) ، الذى هتف :

ـ مَرْحَى !! إنكما تبتسمان .. يا له من يوم جميل !

ثم التفت إلى (أنجيل) ، وهما يتخذان مجلسهما ، واستطرد :

ــ أتعلمين أننى كنت أفتقد هذا الجو الأسرى ؟

ابتسمت وهى تقول :

ــ وأنا أيضًا .

اتسعت ابتسامته ، وتطلّع إلى (وفاء) و (أشرف) لحظات ، ثم قال بغتة :

ــ أتتزوّجيننى يا مدام (أنجيل) ؟

كان السؤال ومضمونه مباغتين ، حتى أن (وفاء) و (أشرف) حدّقا فيه فى دهشة ، فى حين ازدادت حُمْرة بشرة (أنجيل) الوردية ، على الرغم من سنوات عمرها ، التى تجاوزت الخمسين ، وهتفت فى حياء :

ــ أتزوّجك ؟!

كان هتافها يحمل من الدهشة أكثر مما يحمل من الاستنكار ، فابتسم (أشرف) ، وهو يقول :

ــ يا لها من فكرة رائعة ؟

منحه الأستاذ (عطا الله) نظرة امتنان ، وقال لها فى حماس :

ــ ولِمَ لا ؟!.. إن كُلًا منّا يُعانى الوحدة ، فلِمَ لا نتزوّج ؟

ثم استطرد فى مرح :

ــ واطمئنى .. لن يُوقفنى هذا عن دفع قيمة إيجار حجرتى .

ابتسمت (أنجيل) فى حياء ، وغمغمت :

ــ ليس هذا ما أقصده ، ولكن عمرنا ..

قاطعتها (وفاء) فى حماس :

ــ ومن يهتم ؟.. الزواج والحب لا يعرفان السنوات والأعمار .

ازداد تخضُّب وجه (أنجيل) ، وغمغمت :

ــ ولكننا من دينين مختلفين ، ولست مستعدة لتبديل عقيدتى ، فى مثل هذا العمر .

هزّ (عطا الله) كتفيه ، وقال :

ــ ومن طلب منك أن تفعلى .. إن دينى سَمْح ، يسمح لى بالزواج من امرأة تعتنق أيّة ديانة سماويّة معترف بها .

بدا وكأن الفكرة قد راقت لها ، وهى تغمغم :

ــ وماذا عن أولادك ؟.. هل سيوافقون ؟

ابتسم فى مرارة ، وهو يقول :

ــ لن يعلموا .. وحتى لو علموا فلن يهتموا ، ما دمت لن أحرمهم أى ميراث .

عاد (أشرف) يردّد فى حنان :

ـ فكرة رائعة بحق :

ارتسمت ابتسامة خجلى على شفتى (أنجيل) ، فهتفت (وفاء) فى فرح :

ـ سأعدّ كعكة الزفاف بنفسى ، و .....

ارتفع رنين الهاتف فى تلك اللحظة ، فقفزت إليه (وفاء) ، ووضعت سمّاعته على أذنها ، وهى تقول فى حماس :

ـ هنا (بنسيون الحسين) .. من المتحدّث ؟

أتاها صوت (هشام) ، وهو يهتف :

ـ (وفاء) .. إنه أنا .. لقد تذكّرت صاحب هذا الوجه .. إنه صاحب قصة معروفة .. لقد قتل فتاة من قبل .. قتل ابنته ..

* * *



١٢ ـ القلب الضائع ..

تجمّدت الدماء فى عروق (وفاء) ، وتسمّرت أطرافها وهى تسمع تلك العبارة الأخيرة ، وقبل أن تصرخ فى لهفة ، طالبة المزيد ، كانت (أنجيل) تنهى الاتصال ، قائلة :

ـ لن يزعجنا أحد الآن .

هتفت (وفاء) فى حدّة واستنكار :

ـ مدام (أنجيل) !.. لقد كانت محادثة هامة .

تناولت منها (أنجيل) سمّاعة الهاتف ، وأعادتها إلى موضعها ، قائلة :

ـ ولو .

ثم أمسكتها من معصمها ، مستطردة :

ـ سنبدأ فى إعداد الكعكة على الفور .

غمغمت فى عصبيّة ، وهى تتبعها إلى الداخل :

ـ مدام (أنجيل) .. لقد كدت أعرف سرّ (أشرف) .

أجابتها فى حزم :

ـ أعلم ذلك ، لقد كنت قريبة من الهاتف بما يكفى .

ثم التفتت إليها مستطردة :

ــ ولكن لماذا تفعلين يا (وفاء) ؟.. لماذا تهدمين سعادتك بنفسك ؟

ترقرقت عينا (وفاء) بالدموع ، وهى تقول :

ــ كان من الضرورى أن أعرف .. لقد أخبرنى (هشام) أن (أشرف) قد قتل ابنته يومًا .

سألتها فى مرارة :

ــ وهل تتصوَّرين أن يقتل إنسان ابنته ؟

ارتبكت وهى تغمغم :

ــ ولكن (هشام) يقول .....

قاطعتها فى حزم :

ــ اسمعينى جيِّدًا يا (وفاء) .. إننى أعتبرك ابنتى ، ونصيحتى لك الآن هى نصيحة أم لابنتها .. لا تفسدى سعادتك بنفسك .. الحقيقة قد لا تجلب السعادة دومًا .. بل كثيرًا ما تجلب الشقاء .. لقد كان (أشرف) يعبُر مُنحنًى بالغ الخطورة فى حياتك ، ولقد عاونته أنت على اجتيازه وتجاوزه ، فلا تفسدى عملك .

تمتمت ودموعها تنحدر ساخنة على وجنتيها :

ــ ولكن .....

قاطعتها فى حزم :

ــ إنها نصيحتى إليك .

أطرقت (وفاء) بوجهها ، مغمغمة :

ــ لا بأس .. سأستمع إليها .

قادتها (أنجيل) إلى المطبخ ، وهى تقول :

ــ حسنًا يا بنيَّتى ، والآن ستوفين بوعدك ، وستصنعين كعكة الزفاف بنفسك .

سألتها وهى تجفِّف دموعها :

ــ هل وافقت على الزواج ؟

تخضَّب وجه أنجيل بحُمرة الخجل ، وغمغمت :

ــ ولِمَ لا ؟

ثم غمزت بعينها ، مستطردة :

ــ إنها حياة واحدة نحياها .. أليس كذلك ؟

نعم .. إنها حياة واحدة ..

حياة اقتربت من نهايتها بالنسبة لـ (وفاء) ..

لن يمنحها قلبها المريض عمرًا كافيًا ..

فلتحَىَ أيامها الأخيرة إذن ..

إن (أنجيل) على حق ..

الحقيقة لا تجلب السعادة دومًا ..

بل قد تجلب الشقاء ..
وشردت ببصرها وهى تعدّ الكعكة فى آلية ..
ولكنه قتل ابنته !..
(هشام) يقول هذا ..
وهو لايكذب ..
(أنجيل) أيضًا تعلم أن (أشرف) قد قتل ابنته ..
لهذا أنهت الاتصال ..
إذن فهو متزوِّج ..
أو أنه كان كذلك ..
ولكن ماذا حدث لزواجه ؟..
ولماذا قتل ابنته ؟..
وفجأة ، سمعت (أنجيل) تصرخ :
ـ احترسى يا (وفاء) .
ورأت لسانًا من اللهب يندفع من الموقد ..
وتراجعت فى ذُعر وعنف ..
وارتطمت ببعض الأوعية المعدنية ..
وتساقط كل شىء ..
وانهارت الأوعية فى ضجيج هائل ..
وأسرعت (أنجيل) تُغلق الموقد ..

وخبا لسان النار ..
ولكن قلب (وفاء) اشتعل ..
لم يحتمل الصدمة والمفاجأة ..
وشعرت المسكينة أن قلبها يكاد يتمزَّق من عنف ضرباته ..
وبدت لها أنفاسها وكأنها مصنوعة من نار ..
واختنق صدرها ، كما لو أن دبَّابة كاملة تعبُر فوقه ..
ثم انبعث ذلك الألم الرهيب فى صدرها ..
ألَمْ أشبهُ بسكين حادّ ..
ونفذ الألم من ظهرها ..
ثم سقطت ..
وسمعت (أنجيل) تصرخ :
ـ (وفاء) .. ماذا أصابك ؟.. (وفاء) !
وسمعت وقع أقدام تهرع إلى المكان، و (أنجيل) تستطرد :
ـ لست أدرى ماذا أصابها .. لقد سقطت فجأة ..
وشفتاها زرقاوان للغاية ، وهذا الشُحُوب فى وجهها .
وارتفع صوت الأستاذ (عطا الله) يهتف فى هلع :
ـ الإسعاف .. سأطلب الإسعاف .
وانحنى شخص يحملها بين ذراعيه ، وهو يهتف :

— إنه قلبها .. كنت أعلم أنه عليل .

ميّزت صوت (أشرف) ، فغمغمت فى تهالُك :

— هذا القلب العليل لم يحب سواك يا (أشرف) .

ثم انهارت مقاومتها ، وسمعت (أشرف) يصرخ :

— لا يا (وفاء) .. لا ..

وأحاط بها ظلام بارد من كل جانب ..

* * *



١٣ — أنت قدرى ..

« إنها تستعيد وعيها » ..

تسلّلت العبارة إلى أُذنيها ، حاملةً صوتًا مألوفًا ، جعلها تتساءل فى أعماقها :

— أما زلت على قيد الحياة ؟.. عجبًا !!

فتحت عينيها فى صعوبة ، وميّزت فى صعوبة ذلك الوجه الذى يتطلّع إليها ، وغمغمت :

— دكتور (هشام) ؟؟.. أين أنا ؟

ابتسم فى عطف ، وهو يجيب :

— أنت هنا يا آنسة (وفاء) .. فى (قصر العينى) .. لقد زال الخطر .. زال تمامًا .

غمغمت فى مرارة :

— أتعنى أننى قد تجاوزت الأزمة هذه المرّة أيضًا ؟

أجابها فى خُفُوت :

— بل تجاوزت المرض يا (وفاء) .. لم يَعُد قلبك عليلًا .. لقد زال الخطر إلى الأبد .

لم تفهم كلماته ..

ما الذى يعْنيه بأن قلبها لم يَعُد عليلًا ؟..

أى قول هذا ؟..

حوَّلت أفكارها إلى كلمات . وهى تسأله فى وَهن :

ـ ماذا تعْنى ؟

أجابها مبتسمًا :

ـ لقد أجريت لك جراحة لاستبدال الصمامين التالفين ، ونجحت نجاحًا مُبهرًا ، وقلبك اليوم يعمل بكفاءة تامة .

هتفت فى ذُهُول :

ـ أُجريت الجراحة ؟!.. متى ؟

أجابها فى حنان :

ـ منذ أسبوع .. أنت فاقدة الوعى منذ ثمانية أيام .

هتفت ذاهلة :

ـ يا إلٰهى !!

واغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تستطرد :

ـ كيف أشكرك يا دكتور (هشام) ؟.. إننى أدين لك بحياتى .

أطرق برأسه مغمغمًا :

ـ كنت أتمنَّى أن أحوز هذا الشرف ، ولكننى لا أستحقه فى الواقع ، إنك تدينين بحياتك لأبرع وأشهر جراح قلب فى العالم ، لصاحب الأصابع الذهبية ، الذى تحدَّى كل المحاذير ، وأجرى لك أروع وأنجح جراحة قلبية فى تاريخ الطب .

ورفع عينيه إلى الجهة المقابلة ، مستطردًا :

ـ إلى الدكتور (أشرف ماهر) .

أدارت عينيها إلى حيث ينظر ، واتسعت العينان فى ذُهول ، وهى تهتف :

ـ (أشرف) .. مستحيل !!

كان يقف إلى جوارها فى معطف الأطباء الأبيض ، وقد شحُب وجهه للغاية ، ونَمَت لحيته لتزيد من شُحُوبه ، وتضاعفت مساحة الشيَب فى فَوْدَيْه ..

وكانت عيناه تحملان شيئًا جديدًا ، بعد أن تلاشى منهما ذلك الحزن الدفين ..

كانتا تحملان حبًّا عميقًا ، وحنانًا بلا حدود ..

ولقد ابتسم بكل هذا الحب وذلك الحنان ، وهو يغمغم :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (وفاء) .

غمغمت :

ـ أنت يا (أشرف) ؟!.. أنت جرَّاح قلب ؟!

أجاب (هشام) :

ــ الدكتور (أشرف ماهر) من أشهر جرَّاحى القلب فى العالم أجمع ، ولقد ألقى محاضرة فى كليتنا ذات مرَّة ، وعندما نقلك إلى هنا ، بعد أن أجرى لك بعض الإسعافات فى (البنسيون) ، كانت حالة قلبك سيئة للغاية ، ولكن أعلن عن شخصيته ، وجنَّد قسم جراحات القلب كله للعمل على إنقاذك ، وعلى الرغم من جزم الجميع باستحالة ذلك ، إلا أنه أجرى العملية بنفسه .. وأنقذك ..

سالت دموع السعادة والامتنان من عينيها ، وهى تتمتم :

ــ (أشرف) .. إننى .....

أشار إليها بالصمت ، وهو يغمغم فى حنان :

ــ لا تتحدَّثى يا (وفاء) .. لقد استعدت وعيك على التوِّ ، وتحتاجين للراحة .. فقط استمعى إلىَّ ، وسأقصّ عليك كل شىء .

تنحنح الدكتور (هشام) ، وغمغم :

ــ سأترككما وحدكما .

وأسرع يغادر الحجرة ، ويُغلق بابها خلفه ، فجلس (أشرف) على طرف فراش (وفاء) ، والتقط كفَّها الرقيقة ، واحتضنها بين راحتيه ، وهو يقول :

ــ قصتى عادية فى بدايتها يا (وفاء) .. فلقد حصلت على بكالوريوس الطبّ والجراحة من جامعة (القاهرة) ، وسافرت إلى (إنجلترا) ؛ لاستكمال دراستى ، وهناك تعرَّفت إنجليزية حسناء ، وتزوَّجتها ، وأنجبت منها طفلة باهرة الحسن ..

ازدرد لُعابه ، وهو يستطرد فى حزن :

ــ وما هى إلا سنوات ، حتى أصبحت واحدًا من أشهر جرَّاحى القلب فى (إنجلترا) ، ورحت ألقى المحاضرات هنا وهناك ، وأنتقل من مستشفى إلى آخر ، دون أن أجد الوقت الكافى للاهتمام ببيتى وأسرتى .

ترقرقت الدموع فى عينيه ، وهو يتابع :

ــ وفجأة ، أصيبت ابنتى الوحيدة بمرض قلبى عُضال ، وأصبحت تحتاج إلى جراحة دقيقة .

سالت الدموع من عينيه ، مع مرارة الذكرى ، وهو يردف :

ــ وأجريت العملية لابنتى بنفسى ، و .....

انتحب فجأة ، وهو يهتف :

ــ وقتلتها .

خَفَق قلبها حزنًا من أجله ، وحنانًا له ، وربّتت على كفّه مغمغمة فى إشفاق :

ــ يا للمسكين !.

ظلّت دموعه تنهمر لحظات فى صمت ، ثم جفّفها مغمغمًا :

ــ ماتت ابنتى ، وفقدت أحب مخلوق لى فى الوجود .. وثارت زوجتى ، واتّهمتنى بالتقصير ، وبأننى المسئول عن وفاة ابنتنا ، وانفصلنا ، وطلبت هى الطلاق ، وحصلت عليه .

زفر فى قوة ، قبل أن يضيف :

ــ وبعدها فقدت الثقة فى مهارتى كجرّاح .. أصبحت أصابعى ترتجف كلّما أمسكت مِبضعًا ، وخُيّل إلى أن كل مرضاى هم ابنتى .. تصوّرت أننى سأقتل كل من يلمسه مبضعى .. وفشلت ..

صمت لحظة وكأنه يجترُّ ذكرياته ، ثم تابع :

ــ وعدت إلى (القاهرة) .. عدت مع كل الثروة التى جمعتها فى (إنجلترا) ، وقرّرت أن ابتعد عن الطّب تمامًا ، وأن أحيا فى ذلك الحىّ الشعبىّ إلى الأبد ..

وتطلّع إليها فى حنان ، مستطردًا :

ــ ثم ظهرت أنت .

وابتسم مردفًا :

ــ عندئذ انقلبت حياتى كلها ، وأصبحت لى عمرى كله ، وعندما ازداد تعلُّقى بك ، هَوَيْتِ بين ذراعىَّ بقلب مريض .

وانعقد حاجباه فى حزم ، وهو يقول :

ــ ولم أحتمل فكرة فقدك .. لم أحتملها .. وكان علىَّ أن أنتزعك من بين مخالب الموت ، مهما كان الثمن .

سألته فى حنان :

ــ ولكن كيف استعدت ثقتك بنفسك ؟.. وكيف أجريت لى تلك الجراحة المعقّدة بنجاح ؟

مال نحوها ، وهمس :

ــ أنت دفعتنى إلى ذلك .

ثم أردف فى حنان :

ــ إننى أحبّك .

أخيرًا نطقها ..

أخيرًا أعلنها واضحة صريحة ..

إنه يحبها ..

يحبها كما أحبّته وتحبه ..

وفى حُبٍّ جارف هتفت :

ــ أنا أيضًا أحبك يا (أشرف) .. أحبك من كل قلبى .

ثم أردفت فى حياء :

ــ على الرغم من أنك قد كذبت علىَّ .

غمغم :

ــ أبدًا يا حبيبتى .. إننى لم أكذب مطلقًا .

ابتسمت وهى تقول فى حنان :

ــ بل كذبت ، فأنت لم تبع لوحة (مسجد الحسين) .. بل نقدتنى ثمنها فحسب .

ابتسم وهو يضمّ كفّها إلى صدره فى حنان ، قائلًا :

ــ ولكننى لم أكذب ، فقد أخبرتك أن الرجل الذى اشتراها يهوَى الفن ، وأن ريشتك قد راقت له .. وأنا هو هذا الرجل .

همست فى حبّ :

ــ كم أحبك يا (أشرف) .. لقد أرسلك القدر لتنتشلين من مخالب الموت .

همس فى هيام :

ــ وأرسلك لانتشالى من أنياب اليأس والضياع .

أطلّ الحبّ من عينيها ، وهى تقول :

ــ أنت قدرى يا (أشرف) ..

لثم كفّها بقبلة حانية محبّة ، وهو يقول :

ــ بل أنت قدرى يا (وفاء) .

ومن خلف باب حجرتها نصف المفتوح ، انهمرت دمعة من عينى (أنجيل) ، وامتزجت بأخرى من عينى (عطا الله) .. لقد شاهدا كل الحب ..

وابتسامة القدر ..

* * *

[تمت بحمد الله]



المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لايجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

أنت قدرى

عبس القدر فى وجه
(وفاء) ، وناء قلبها بالمرض ، حتى
وجدت أمامها رجلاً يحمل كل الغموض
والأسرار .. ولم تدرك (وفاء) لماذا يجذبها هذا
الغموض ، ولماذا تتعلّق بصاحبه ،
ولكنها أدركت فى أعماقها أن
هذا هو القدر .. قدرها



الثمن فى مصر ١٢٥ قرشًا
ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم